

حب من طرف ثالث



محمد عبد الواحد



حب من طرف ثالث

محمد عبد الواحد



رئيس مجلس الإدارة
عادل المصرى

مدير مجلس الإدارة المنتخب
حسام حسين

مستشار النشر
أحمد جمال الدين

رقم الإيداع

٢٠٠٤ / ٢٥٣٠

الترقيم الدولى

٩٧٧ - ٦٠٨١ - ٦٧ - ٣

الجمع والإخراج الفنى
«مكتبة ابن سينا»

ت : ٦٣٧٨٨١٢ ف : ٤٨٢ - ٦٣٨٠

مطابع ابن سينا

الكتاب : **حساب من طرف ثالث**

المؤلف : **محمد عبد الواحد**

الغلاف : **للغنان إلهامى عزت**

الناشر : **أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م**

٢٥ ش وادى النيل - المهندسين - القاهرة

٥ ش محمد شفيق - من ش وادى النيل - المهندسين

E-mail: atlas@innovations-co.com

تليفون : ٣٠٢٧٩٦٥ - ٣٠٣٩٥٣٩ - ٣٠٤٣٤٦٩

فاكس : ٣٠٢٨٣٢٨

إهداء

إلى أصدقائي الحقيقيين ،
الذين منحوني « الحرية » ..
وتحملوا « تحري » :
أنتقائي ... محمود ، منال ،
مصطفى ، منى ، مایسة ..
وفاروق حسنى
.. وصباح

محمد

يناير ٢٠٠٤

مقدمة

الطبعة الثانية

ما الذى يجعل الأشياء تكتمل؟.. نحن أم هي؟... لا أدري.
فالأشياء لها حياتها وأناقته ونزواتها، ورغبتها فى الولادة
مكتملة، وكذلك نحن نظل طوال العمر نبحث عن شىء واحد بلغ حد
الكمال لنفرح به ونتحمى.

طوال عمري لا أرى الكمال إلا فى الأشياء - والأشخاص -
المجردة، عرفت كثيراً من المشاهير ، صورتهم جميلة ، جميلة لكن
بمجرد الاقتراب منها والتعامل معهم يسقط القناع عن القناع. لذلك
حاولت دائماً أن تكون لى شاشتى الخاصة ، أعرض عليها الأسماء
والأشخاص والمواقف بالصورة التى أحب، دون دجل أو تزييف.

تعرفت إلى مئات الشخصيات على الورق ، وفى الشوارع ، وفوق
الشاشات، لكن ما كان يثبت منها فى ذاكرتى.. هو مايطعم ذاكرتى
بهجة وحزناً، ويحل مشكلاتى، وما أرى فيه مستقبلى الذى لن
أعيشه، شخصيات كثيرة لم أوسع أبداً للتعرف إليها رغم سهولة
الطريق والطريقة نحو ذلك، شخصيات أكثر لا أعرفها ولا تعرفنى ،
أفرح فقط لمجرد أنهم مروا من هنا.. من هذا البرزخ الذى أصبح
مميّناً واسمه : الدنيا.

تستطيع أن تكره الناس بسهولة، لكنك لا تستطيع أن تفعل الشيء نفسه عندما تقرر حبهم بصدق، فأمامك آلاف الأسباب التي تدفعك لكرائيتهم، لكن لا أحد يعينك أبداً على الحب.

الحب في هذه الدنيا أصبح كالعدوى ، التي - بدلاً من أن تنتشر - يهرب منها الناس، يخترعون كل يوم أمصلاً للقضاء عليها ، رغم أن الحب هو الشفاء ، للعقل والخيال ، وهو سبب الكراهية والنبوغ والإشراق، لكننا في زمن لا يعرف الأسباب، ولا يدركها، وليس لديه وقت لتأملها والحفاظ عليها وتعلمها، نسعى - فقط - نحو النتائج مهما كانت أسبابها .. عشوائية أو سامة!

لكل ذلك تعلقت طوال حياتي بأشخاص وأسماء، كمعجب أولاً، وكمرريض ثانياً، أبحث عن علاج لقلبي الموجوع وروحي المنكسرة، ليست في شارع أشجار، ولا في غرفتي قطعة من السماء، أبحث عن شيء أنشبت به دوماً فلا أجد، أقفز وأسقط.. كما طرت أفع، حتى تعرفت على تلك الأسماء الجميلة، كتبت عنها، تنبّهت دوماً إلى أنني أكتب عن نفسي، لم أشعر بأنني خدعتهم لأن أصحاب تلك الشخصيات لا يحتاجون لأن أكتب عنهم، لكنهم سيفرحون حين أكتشف نفسي فوق مراتهم.

الشخصيات - وحياتهم - التي ستقرعونها في هذا الكتاب لا تحتاج إلى تقديم، لكنني أتحايل لأقدم نفسي «خلسة» في وسطهم، لقد كتبت عن كل واحدٍ واحدة منهم ما رأيته وشعرت وأحسست ،

لكن السؤال: لماذا تلك الشخصيات بالذات؟

- لأنها شكلت حياتي، ثقافتى وطموحى الموعود، ولأنها جميعاً نسيج واحد تعددت ألوانه، وتركت الألوان نفسها للسياسة والفن والتاريخ والدين ففعل كل منهم بالألوان ما فعل من انتحار سعاد حسنى ، وإلى مواصلة حسن نصر الله لجهاده صبيحة مصرع ابنه بين يديه!

إنها الحياة ، وأنه الفن ..

تلك الشخصيات التى توقفت أمامها تعرف جيداً ما هى الحياة، يتركون لنا حياتهم لتتلم منها ما هو الفن.. فن الحياة والموت.
إن الإنسان يحتاج فى كل وقت الى حماية.. فما أضعفه وأتفهه إن لم يلملم قواه! وما أشرسه إن اكتشف نفسه ومواضع القوة فيها، أعتقد أن تلك الشخصيات التى ستقرعون عنها بعد قليل فشلت فى معظم ما كان فى حياتها ، ولم تنجح سوى فى فهمها ، .. كل واحد وواحدة منهم عرف مكن قوته، فكان طبيعياً صدق مقولة «أنت حيث تضع نفسك».

الحب غالباً يكون بين طرفين، وأحياناً يكون من طرف واحد وهو عذاب رائع، أما حبى أنا لتلك الشخصيات فهو من «طرف ثالث» ، لأن هناك ملايين يحبون تلك الشخصيات من طرف واحد، وهناك محظوظون عاشوا ويعيشون حبا بين طرفين «هم وتلك الشخصيات»، من هنا جاء عنوان كتابى، فهو «حب» يجمع الطرفين

السابقين .. وأنا ! ، وإن كنت أسميه كتاباً تجاوزاً إلا أنني أرجوه أن يكون بداية ولو متواضعة لأقدم الشكر لكل من ساعدنى عبر سنواتى الماضية المزعجة والمنزعجة، وبخاصة الذين ساعدونى ونسوا ذلك .. منهم الدكتور عمرو عبد السميع الذى أتاح لى أن أكتب أول ما كتبت فى جريدة «الحياة» اللندنية عندما كان مديراً لمكتبها فى مصر، أما الأستاذ مرسى عطا الله رئيس تحرير الأهرام المسائى ، فقد تركنى أكتب ما أريد طيلة ١٠ سنوات حفلت بالأخطاء والتعلم والدرس، والامتنان نفسه لصديقى الكاتب الفلسطينى المتميز «حافظ البرغوثى» لحبه وتشجيعه ، وتسليمه لى معظم المسئولية عن مكتب جريدة «القبس» فى القاهرة وأنا فى بداية العشرينيات من عمرى. كما لا أنكر أنني مدين باعتذار للمهندس (نجيب ساويرس) ، لأنه كان وعداً بيننا أن يكون أول كتاب لى برعايته.

أما الأصدقاء الحقيقيون الذين تحملوا إزعاجى لسنوات ونجحوا فى صنع ولو نصف بنى آدم وكاتب مني ، فلهم كل حبى فى كل مكان، وأرجو أن تغفروا لى أى خطأ فى كتاب هو الأول لكاتب مبتدئ ..

محمد عبد الواحد

يناير ٢٠٠٤

الفصل الأول 1



حسن نصر الله «السيّد رئيس تحرير الجنوب»

الجلد،

والدبلوماسية المتقدمة في برامجها، تبلي
واضحة جداً في كل تصريحات وخطاب، نصر الله..

السياسي

من الذي صنع حزب الله

رغم

انه يتكلم على شاشة التليفزيون كثيرا ، إلا أنك تصدقه عندما يقول إن حزب الله نجح لأنه يفعل أكثر مما يتكلم، فهذا الرجل يقف خلفه أكثر من ٥٠٠ شهيد من بينهم أحد ابنائه و٣٠ ألف جريح، وانتصار هو الأول من نوعه في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي، حيث أجبر جيش الاحتلال الإسرائيلي - لأول مرة - على الخروج من أرض عربية احتلها بالقوة ، وهي جنوب لبنان.

رغم بساطته وسهولة عباراته إلا أنها شائكة وتشبه الكون في تعقيد ه .. فهي تتراوح ما بين الطلقات المتسارعة عندما يتحدث عن العدو، وإلى تحرك السحاب الهادئ عندما يختار كلماته التي يصف بها موقف حزبه السياسي وعلاقاته بالآخرين، وفي كل ذلك فهو يرتدى عباءة فوق جلباب وغطاء رأس ونظارة طبية وابتسامة لا تختفى كثيرا، إلا أن السواد هو اللون الأوضح في صورته الجميلة، لعله يقصد أن يذكرك دائما بأكثر صناعة يجيدها ، وهي صناعة الشهداء.

السيد حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله قالها

الأعداء

ينتشرون

في كل

موضع

قريبين ..

ربما تحت

الجلد ..

بوضوح: «من السخافة أن يظن أحد أننا ما دمنا نقاتل انطلاقاً من نهج عقائدي فلا بد أن نواجه الدابة بالسيف»!
إنه يقفز بك دائماً إلى أبعد من النقطة التي تتصور أنك تحاصره فيها، استناداً إلى أنه شيخ معمم، تطل عليك لحيته بكل وضوح.
لا أخفى إننى واقع فى هوى سطوة تلك الشخصية، وفى استفزازها لى لأنه شاب مثلى.. يكبرنى فقط بسنوات قليلة جداً .. لكن شتان بين سنواته القليلة التى غيرت مناطق فى الكون ومواقع فى التاريخ، وسنواتى - وملايين مثلى - التى لم تستطع أن تغير موضع حبة رمل ولا موقع نفس!

كلما كنت أرقبه عبر شاشات التليفزيون لا استمع كثيراً إلى ما يقوله، لكننى أتبه مع تلك الهالة الأثيرية التى تحيط به وأحاول أن أفهم، هل سببها كامن فيه أم صنعتها تلك الأنباء الساحرة التى ارتبطت به، والفرح مع كل نصر رجولى يحققه حزب الله على العدو الإسرائيلى فى جنوب لبنان؟.

لا أخفيكم أننى ظللت حتى فترة قصيرة جداً أرى حزبه - وموقعه فيه- أكبر منه، حتى عكفت على قراءة ما أتيح لى من خطبه وحواراته الصحفية، وتابعت - بروح ناقدة- كل كلماته وحواراته التى أتيحت لى مشاهدتها عبر التليفزيون - خاصة فى قناة المنار اللبنانية التابعة لحزب الله - ، فوجدته ينظر لى فى نهاية المتابعة بابتسامته التى لا تستطيع الهروب من سخريتها، وفهمت ما يعنيه، وأظنه لا يعنيه أن يعرف إعرافى بتسرعى فى الحكم عليه.

فى البداية أنبهكم - وأنبه نفسى- إلى أنه من المهم عند ذكرك لإسم «حسن نصر الله» أن تسبقه بكلمة «السيد» وليس «الشيخ»، لأن لها دلالات فارقة عند الإخوة الشيعة، حيث أن الكلمة الثانية تعنى أن الرجل لا يتصل نسبه بال البيت على العكس من الأولى التى تشير إلى أنه من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم.

من الضرورى التأكيد على أن حزب الله صنع حسن نصر الله، وما اكتسبه الحزب من تطور فى الأداء السياسى فى بداية التسعينيات إنعكس بشكل أساسى على أزمينه العام الحالى، الذى يبدو صاحب خطاب سياسى خاص جدا يختلف عن كافة الخطابات السياسية والإسلامية فى المنطقة، بما فيها إيران الممول الأساسى لحزب الله منذ النشأة - نشأة الحزب- وحتى اليوم .. وجاء هذا التميز إبتنا شرعيا لظروف خاصة عاشها نصر الله منذ ولادته، وعاشها الشيعة فى لبنان - خاصة فى الجنوب- فضلا عن ظروف إستثنائية خرج فيها حزب الله إلى النور.

وإذا كان نصر الله يتحدث كثيرا عن الأولويات ويختار كلماته بعناية وهو يوضح مفهومه لها حتى لا يقع فى أدنى حرج مع الحكومات العربية، إلا أنه يرى أن مقاومة إسرائيل فى مقدمة الأولويات، وأنه غير معني بمقاومة الحكومات، بل إنه قد يدين ذلك فى بعض الأحيان .. ومناسبة حديثى عن الأولويات هنا أننى لا أستطيع مقاومة الحديث عن نصر الله وحياته وسأضعها فى مقدمة الأولويات الآن وبعدها .. «حزب الله»!

من المعلومات المتوافرة عن حسن نصر الله على الورق وشاشات الكمبيوتر تعلم أن حياته على أرض الواقع .. متناثرة وصعبة ومراوغة إلى أقصى حد .. أما أكثر ما يشبه حياة نصر الله وحزبه فهي مواقعه على شبكة «الإنترنت»، التي تتبدل كل يوم بحكم الغارات الإسرائيلية عليها، لكنها عندما تظهر تكون أنيقة براقة زاهية الألوان لا علاقة لها بالسواد الذي تتميز به ملابس نصر الله وأتباع حزبه .. إنهم يخاطبون أنفسهم ونويعهم بلغة يحبونها «كربلاء/ سواد/ استشهاد الحسين»، ويخاطبون العالم - عبر الإنترنت- وفقا لأحدث خطوط وألوان الموضة والاتصالات.

شعرت بالأسى والشجن في لحظتين من حياة هذا الرجل .. الأولى عند «ميلاد»، والثانية عند «وفاة».. ميلاده هو الذي يوجد تاريخان له بحسب حوارات وكتب صدرت عنه، الأول في ١٩٥٨ والثاني في ١٩٦٠ .. المهم أنه عند كتابة سطورى عنه لم يتخط الأربعين بكثير .. وكان الميلاد في أحد أحزمة البؤس والفقر حول بيروت في حي «شرشوبوك» .. وعاش فترة في هذا الحي مع والده الذي كان يمتلك دكانا فقيرا كسائر الشيعة وفققرهم الشديد في لبنان .. حاولت أن أجمع ما تيسر من معلومات عن تلك الفترة من حياته إلا أنها كانت قليلة جدا، لكنك لست في حاجة لها إذا استمعت إلى العديد من المحللين المعنيين بأمر الشيعة في لبنان عندما يؤكدون أن منازلهم الفقيرة وحياتهم البائسة خاصة بالقرب من الاحتلال الإسرائيلي أو تحت نيره في جنوب لبنان كانت تمثل أصلح تربة لنمو «الشهادة» وولادة الشهداء.

تبدو لحظة ميلاد نصر الله مؤثرة في شخصيته فهي ككل لحظات لبنان أبداً محفوفة بالمخاطر والقلق والتنوع ما بين المذاهب الدينية والعرقية والسياسية، التي تقف كلها على حافة التهديد الإسرائيلي، ويذكر العديد من رفاق طفولته أنه لم يختلف كثيراً في شبابه الممتد حتى اليوم عن طفولته إلا في المناورة والمهارة السياسية، لكنه ظل طوال هذا الوقت الممتد متديناً، شرساً في رفضه أى مزاح يمس الدين أو الذات الإلهية، ولطالما تخاصم مع رفاقه إلى حد القطيعة بسبب تلك المسائل، وكان أغلب رفاقه في فترة الصبا موزعين بين شيوعيين وناصريين وبعثيين وقوميين. أما اللحظة الثانية فهي عند استشهاد ولده البكر «هادى» في مواجهة غارة للقوات الإسرائيلية .. تلك اللحظة كانت في مكتبه بعد تلقيه خبر استشهاد نجله، حيث طلب من زملائه أن يتركوه وحده في مكتبه لعدة دقائق .. وبعد شهور كشف عن أنه لم يطلب خلوة ليبكى ، وأن كل ما فعله هو أنه استجمع قواه وقيمه ومفاهيمه التي أوصلته إلى هذا المقام، بعدها خرج متماسكاً قوياً ليتلقى التعازى.

أعتقد أن هاتين اللحظتين صنعنا شخصية هذا الرجل، وفي سياقهما تأثره بشخصيتين غاية في الأهمية هما الإمام موسى الصدر والسيد محمد باقر الصدر المفكر الشيعي الذي لم يتجاوز كثيرون دراسيته المهمتين «اقتصادنا» و«فلسفتنا».

لماذا هاتان اللحظتان ؟... لأنهما تتسقان تماماً مع مفاهيم شيعية أصيلة، تتعلق بالجهاد والتحمل والصبر والتضحية والفرح بالشهادة والوصول بالنفس حد تمنيتها ليل نهار.

وأعتقد أن الرجل إندفع من فقر خالص إلى شهادة خالصة، جعلته يبدو الآن متجرداً ومتفرغاً لمهمته التي برع فيها، وهى التأثير على الناس، من خلال «الكاريزما» التي يتمتع بها وتأثيرها على الآخرين حتى وإن كانت معلوماتهم عنه محدودة.

عبد الكريم والد السيد حسن نصر الله كان مهتما بالرعاية العلمية «الدينية طبعاً» لإبنه، فأدخله مدرسة النجاح بـ «النبعة» ليدرس فى المرحلة الابتدائية، وتابع دراسته التكميلية فى الثانوية التربوية فى «سن الفيل». وجاءت معرفته بالسيد محمد حسين فضل الله المرجع الشيعي المهم فى لبنان، عبر إعتياده أداء الصلاة فى مسجد أسرة التآخى بالنبعة. كان السيد فضل الله يشرف على هذا المسجد .. ولم تمض أيام كثيرة بعد دراسته التكميلية حتى إندلعت الحرب الأهلية فى لبنان ومعها جاء نداء الجنوب، حيث عاد نصر الله إلى مسقط رأس عائلته فى بلدة البازورية فى الجنوب اللبناني ليعيش حرماناً أقسى مما تربى عليه فى الكرنطينا التي شهدت مجازر مروعة، وظلت عيناه عليها طوال الوقت .. وخلال وجوده فى الجنوب عاش أياماً طويلة من القراءة والتأمل، ولا أدري هل كان خياله يرسم له فى تلك الفترة «١٩٧٥ - ١٩٧٦» الإجتياح الإسرائيلي للبنان، ثم دوره - شخصياً - فى إنشاء حزب الله وأنه سيصبح «السيد» رئيس تحرير الجنوب! .. إنه فى تلك الفترة كان يفكر فى أشياء كثيرة، لكن ما فعله أنه أسس مكتبة صغيرة بمساعدة الشيخ على شمس الدين، ثم صار يعطى دروساً دينية مبسطة للشبان الذين يترددون على مكتبته، قبل تلك الفترة بقليل كان قد درس الصف الأول

الثانوى فى «صور»، وانضم إلى حركة «أمل» الشيعية عام ١٩٧٦، وتم تعيينه مسئولاً لتنظيم الحركة فى منطقة «البارزورية»، وتعرف هناك إلى الدكتور مصطفى شمران الذى كان له دور بارز فى توجيهه فى العمل معه لخدمة أهداف «أمل».

من المهم أن نلاحظ طوال الوقت أن هذا الرجل لم يأت - أو يتحرك - فى فراغ .. لكن حياته كلها عبارة عن مجموعة دوائر تمضى فى دائرة كبيرة، وتتقاطع بعض خيوطها أحياناً - ولا تصطدم - بعناية ولأهداف ليس من التآمر والظن أنها مرسومة.

فهو سيذهب إلى «النجف الأشرف» مدرسة العلم الشيعى فى إيران يوم ١٥ ديسمبر ١٩٧٦، وسيلتقى هناك بعباس موسى الذى سبقه فى المنصب الذى يتولاه الآن «الأمين العام لحزب الله»، ومنذ هذا اللقاء توطدت العلاقة .. ليؤسس الحزب فيما بعد.

فى النجف الأشرف الذى ذهب إليه نصر الله كان هناك الإمام الشيعى البارز السيد محمد باقر الصدر، أحد أبرز العقليات الشيعية المهمة.. وذهب إليه نصر الله بخطاب توجيه من السيد محمد الخروى، ولا أحد - بالطبع - يلتقى الإمام الصدر ولا يتأثر به.. وكان النظام فى العراق قد إستقبل «الصدر» فى البداية بالترحيب إلا أنه ضاق به بعد سنوات، وحسب روايات كثيرة فقد قتله النظام وشقيقته «بنت الهدى» يوم ٨ سبتمبر ١٩٨٠ بتهمة الإعداد لثورة إسلامية فى العراق .. (٠٠)

يذكر أن هروايات تحدثت عن أن الرئيس العراقى السابق صدام حسين قال متهمكاً لحظة القبض عليه عندما سألوه لماذا أعدمتم

«الصدر»؟.. «صدر أم رجل - بكسر الراء - ؟» بالطبع سيعود نصر الله إلى لبنان لكنه ظل قبل تلك العودة لأكثر من عام ونصف العام تلميذا لعباس موسوى .. عاد إلى لبنان عام ١٩٧٨، وتابع الدراسة في مدرسة الإمام المنتظر التي أسسها موسوى في «بعلبك» وكان مديرها، أما عدد تلاميذها فكان ثمانية فقط!

خلال دراسته في مدرسة موسوى انضم إلى حركة «أمل»، وتولى مواقع تنظيمية فيها، لكن إندلاع الثورة الإسلامية في إيران كان حدثا مهما في تاريخ حياته، وحياة حزب الله فيما بعد، إذ أن تلك الثورة أفرزت واقعا جديدا في أوساط الشيعة في لبنان، وحركة «أمل» تحديدا التي شهدت انقسامًا بين فريقين.

الأول: يريد الإنخراط في اللعبة السياسية اللبنانية، بنفس الشروط والمعطيات المتعارف عليها في ذلك الوقت.

الثاني: رأى في الثورة الإيرانية مرجعا سياسيا جديدا وليس مجرد مرجع ديني، ففتح خطا مباشرا مع إيران وتلقى منها الدعم المادي الكبير والمعنوي طبعاً، وأسهم هذا الدعم في لحظة مناسبة - عقب الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ - في ولادة حزب الله، واتسع الشرح بين الفريقين حتى اليوم إلا أنه يخفت بمهارة - خاصة من جانب حزب الله - كلما اشتعل ظهور إسرائيل في سماء لبنان .. فمتى إختفى هذا الظهور؟! لا أريد الآن أن أبدي رأيا في خيارات الفريقين، فضلا عن صعوبة الخوض في مثلث الرعب المعروف بأحزاب لبنان، إلا أنني أقصر الحديث الآن عن مسيرة نصر الله وحزبه.

مع الإجتياح الإسرائيلي للبنان بدأ مخاض حزب الله، وكانت الأجواء الدموية التي خلفها الاعتداء الإسرائيلي مناسبة لأن يتنادى الجميع: الدماء .. الدماء! .. فدماء اللبنانيين «وغيرهم من الفلسطينيين» التي سالت على أرض لبنان نقلت الشيعة فوراً إلى دماء الحسين على أرض كربلاء، هذا من ناحية التكوين النفسى أو «الجينى»، ولأنهم غاية فى الصمت والقهر فقد تعلموا الدقة وخطوا خطوات أوسع نحو «براجماتية» يسهل لها مفهوم «التقية» الشيعى كل ما تريده تلك البراجماتية، وأسفر الأمر فى النهاية عن تأسيس حزب الله على أيدي أسماء بارزه منها «الشهيد عباس موسى - الشيخ محمد يزبك - السيد حسن نصر الله - السيد إبراهيم أمين - الشيخ صبحى الطفيلى - الشيخ راغب حرب .. وغيرهم» إلا أن الأمر إقتضى حوالى العامين وأكثر ليتم الإعلان رسمياً عن الحزب وإسمه ووثيقته الشهيرة «الرسالة المفتوحة»، وذلك فى ١٦ فبراير عام ١٩٨٥ ، لتبدأ حركة الحزب فى التبلور عبر فريق الشهادة الذى يصل فى بعض مراحلها إلى انسحاب إسرائيل، وبخول ٨ ثم ٩ من أعضائه البرلمان اللبنانى، وإقامة العديد من المنشآت والمؤسسات الإقتصادية والإجتماعية والإعلامية، مما جعل وضاح شرارة يكتب كتاباً بعنوان «دولة حزب الله»، لكن كثيراً من أفكار نصر الله المعلنة ترفض فكرة أن يكون حزبه دولة وإن لم أشعر تماماً أنه ينفى ذلك بشكل مطلق ومستقبلى عن حزبه وكوادره.

وفى إجابته لسؤال من صحيفة «الأهرام»: ما هو مدلول تسمية «حزب الله» .. وهل تعنى هذه التسمية أن كل من لا ينتمى إلى الحزب ينتمى

إلى حزب الشيطان؟ يقول نصر الله: «أطلق حزب الله هذا الاسم على مجموعة الناس الذين يطيعون الله ورسوله، ونحن ندعى أننا نطيع الله ورسوله، لذلك نحن نستحق هذا اللقب، ولكن لا يعنى هذا أننا معصومون من الخطأ، أو أننا لا نُهزم أو نُغلب!».

ليس من شك فى مشروعية طرح هذا التساؤل: من الذى صنع حزب الله؟! .. الإجابة الظاهرة على السطح وتاريخ حزب الله الذى يكتبه مريدوه تقول إنها: ظروف قاسية عاشها - وما زالوا - الشيعة فى لبنان ثم حرب أهلية لبنانية، فاجتياح إسرائيلى للبنان، كل ذلك خلق بيئة صالحة للإستشهاد .. بيئة ولدت ما بين أليتين : الذل والتعذيب .. هذا من ناحية الظرف التاريخى، أما من ناحية البقاء والإستمرار فحسن نصر الله قالها صراحة إنه يتلقى الدعم من إيران حيث قال: «إن ذلك شرف لها -يقصد إيران-»، وقال بوضوح قاطع فى حوار مع مجلة «المشاهد السياسى»: «مثلا لدينا مؤسسة إسمها جهاد البناء، وهناك مؤسستان من هذا النوع، واحدة تابعة لحزب الله والحزب يقوم بتمويلها، وواحدة تابعة للمؤسسة الأم فى إيران ، وإيران تقوم بتمويلها بشكل مباشر .. نستطيع أن نقول إنه فيما يخص العبء الاجتماعى الإنمائى والتربوى فإن هناك مؤسسات إيرانية تعمل وتدعم المؤسسات الموجودة فى لبنان، سواء كانت تابعة لها مباشرة أم لا..

وهناك مصدر آخر من مصادر التمويل هو ما نسميه نحن الشيعة بالحقوق الشرعية .. وفى الفقه الشيعى أرباح التجارة، ويتعلق بها الخمس، والخمس لا يختص حسب الفقه الشيعى بغنائم الحرب، والكثير من هؤلاء المؤمنين المسلمين الشيعة يدفعون خمس أموالهم، فنحن نتلقى

هذه الأخماس، ولدينا إجازات للإستفادة من الحقوق الشرعية من مراجع الدين الشيعة، وهذه الأخماس تصرف للشئون الجهادية والتربوية والثقافية والاجتماعية، وما شاكل بوانتم تعرفون أن مصدر هذا التمويل كبير ومهم، والمصدر الآخر هو التبرعات، فنحن يأتينا كم جيد من التبرعات من داخل وخارج لبنان،... مثلاً في لبنان وعلى الرغم من الظروف الاجتماعية الصعبة، هناك أموال كثيرة تجمع وتدفع في لبنان وخصوصاً في السنوات الأخيرة، نتيجة ثقة الناس بهذه المعارضة وصدقها ومصداقيتها وأمانتها، ولعل المقاومة الإسلامية اليوم هي أكثر جهة تحصل على تبرعات داخل لبنان وحتى خارج لبنان .. إذن فمن مصادر التمويل هذه نحن نؤمن احتياجاتنا، ونحن لا نحتاج إلى مبالغ طائلة لأن جبهتنا محدودة، وحتى الإمكانيات التي نحتاجها في شكل قتال حرب العصابات وليس الحال كما لو كان لدينا جيش كلاسيكي أو نظامي...»

طبعاً أنا فهمت كلام السيد نصر الله على أنه نوع من التواضع الذي يشتهر به، خاصة عندما يتحدث عن حرب العصابات فهي ليست أي حرب أو أي عصابات، إنها حرب شرسة تقدمت كثيراً في تقنياتها من جانب حزب الله بشهادة كثير من الخبراء، فضلاً عن المؤسسات الاقتصادية والإعلامية الكبيرة التي ينفق عليها حزب الله.

بالتأكيد لا تغطي نفقاتها جميعاً تلك الأخماس التي تحدث عنها، حتى وإن كانت تلك المؤسسات مجرد أسداس بين نظيراتها! المهم أن هذا الرجل / الشاب العصري في حضوره وأفكاره

وإبتسامته استطاع أن يحدث نقلة على المستويين السياسي والعسكري، بعد أن تم انتخابه أميناً عاماً لحزب الله عام ١٩٩٢، عقب إستشهاد عباس موسى على يد قوة إسرائيلية محمولة جواً هاجمت موكبه في جنوب لبنان، ووصول نصر الله لهذا المنصب جاء مؤكداً مهارته في اجتياز المراحل .. إختصاراً! .. فخلال دراسته في «الحوزة» العلمية في «النجف» إجتاز خلال عامين فقط مراحل دراسية تحتاج إلى خمس سنوات!، وفي ١٩٩٢ كان أصغر أعضاء مجلس شورى حزب الله سناً، ولم يكن نائب الأمين العام إلا أنه انتخب لهذا المنصب لتظهر بصماته على الحزب وتعرف إسرائيل رعب «الكاتيوشا» بعدما أطلق نظريته.. «توازن الرعب».

تعرض نصر الله خلال مسيرته كأمين عام لحزب الله لعدد من محاولات الإغتيال إلا أنه نفى بعضها ونظر للبعض الآخر دون خوف ويراها أمراً روتينياً، فهو على حسب قوله لا يعرف الخوف، وإن كان يعرف الحذر.

والحذر والدبلوماسية المتقدمة في برامجتيها تبدو واضحة جداً في كل تصرفات و«خطاب» نصر الله السياسي، ويقتنعك بمنطقه الصعب بكل سهولة وكأنه يرسم لك «بورتريه» يذكر بك ببورتريهات صبرى راغب، حيث تحب صورتك بريشته أكثر مما تحبها في المرأة!.

أيضاً تعرض وحزبه خلال فترة الإحتلال إلى محاولات إسرائيلية كثيرة لإحداث اختراق لحزبه إلا أنها لم تنجح، ولا حتى محاولات إحداث شقاق!، كذلك لم تتوقف إسرائيل عن محاولات ضرب المدنيين الشيعة

فى الجنوب وغيره من المناطق اللبنانية حتى ينقلبوا على حزب الله، إلا أن شخصية نصر الله وتأثيرها الروحى كان لها الأثر الكبير فى إعادة مفاهيم التضحية والشهادة إلى الشيعة، إلى الحد الذى أصبح فيه عامة الشيعة فى جنون لبنان - وخارجه - يعدون أبناعهم ليكونوا شهداء لدى نصر الله، كما يعد آخرون أبناعهم ليكونوا أطباء أو مهندسين .. واضطر نصر الله فى نهاية الأمر إلى تأسيس ما عرف باسم «السرايا» التى ضمت قبل عامين - أو أقل - من الانسحاب الإسرائيلى كل من تطوع من غير الشيعة للقتال ضد الإسرائيليين تحت إمرة نصر الله.

لا تخطئ الأذن أو العين رشاقة كلمات نصر الله واختياره لها بعناية، ولا يكون العقل مجاملا إذا قال إن تلك الكلمات لا تصدر إلا عن ثقافة متنوعة ومجاهدة فى تحصيلها، وتربية سياسية رفيعة تجاوزت الكثير من العراقيل التى يصمم البعض أن يضعها باسم الدين أمام السياسة والفكر، لكن ذلك لا يمنع من التزامه بخط دينى محدد وإخلاص واضح للفكر السياسى الشيعى، لكنه بالتأكيد أحدث تطورا - خدمته فيه ظروف عمله السياسى - فى هذا الفكر يحتاج إلى التأمل أكثر من محاولات النسخ.

حيث يبدو هذا الفكر - والسلوك السياسى - إبن بحره فلا يمكن أن يسبح فى ماء آخر وإلا نَفَقَ بعد لحظات أو أيام .. والبديل الوحيد لنحافظ عليه حيا إذا أردنا نقله معنا، هو أن يصبح زينة داخل حوض نتعلم منه القدرة على التنفس طويلا تحت الماء، حتى وإن كان ملوثا بإسرائيل!

ومن بين ما يدعو للتأمل قدرة نصر الله على التحليل الثاقب، والذي لا أستطيع أن أجزم الآن إن كان يستند إلى حس سياسى مدرب أم إلى معلومات؟، فقد سأله صحفى فى مارس ١٩٩٣ عن إمكانية انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان فقال إنه لا توجد مؤشرات لذلك، وذكر أسبابا كثيرة تؤكد أن الانسحاب لن يتم فى هذا التوقيت، ووضع العديد من السيناريوهات لإنسحاب إسرائيل إلا أنه عند، سيناريو إنسحاب إسرائيل من طرف واحد قال: «إن الانسحاب من طرف واحد بلا قيد ولا شرط سوف يشجع الشارع الفلسطينى ويدفعه للإنتفاضة من جديد والعودة إلى خيار المقاومة .. وبالفعل - بعد عامين من حديثه - إنسحب آخر جندي إسرائيلى من جنوب لبنان ليلة ٢٤ مايو عام ٢٠٠٠ وإندلعت الانتفاضة الثانية فى سبتمبر من العام نفسه!؟»

وعلى الرغم من أن العلاقة واضحة ومعلنة بين نصر الله وحزب الله وإيران إلا أنه استطاع بمهارة سياسية أن يحافظ على خطوط إتصال مع معظم الدول العربية وحتى الخليجية .. مستفيدا من كافة أشكال دعمها وداعيا لإختبار مواقفه السياسية منها، وأنكر أنه أصدر بيانا أدان حادث الأقصر الإرهابى، كما أنه حريص - عندما يُسأل - عن الإشارة إلى خصوصية أهداف و«أولويات» حزب الله عن غيره من الفصائل الإسلامية فى أنحاء الوطن العربى، - مثلا يقول ردا على أحد تلك الأسئلة: «لا نريد أن تكون لنا مشكلة مع أحد .. هذه سياستنا، نحن حزب الله فى لبنان .. لا نريد أن ندرب أى عربى أو مسلم له مشكلة مع نظامه أو مع حكومته، ولا نريد أن تكون لنا مشكلة مع أحد فى العالمين العربى والإسلامى، ولا

نريد أن نتدخل فى مشاكل هؤلاء .. ونحن نعتبر أننا نخوض قتالا مع عو
هذه الأمة ونحتاج إلى جمع كل الطاقات .. وكل القوى فى مواجهته، وإن
كانت هذه القوى والطاقات تعيش فيما بينها مشاكل داخلية، وعلى هذا
الأساس أقول سلفا وبشكل قاطع وأكد: ليس لدى حزينا أى أنشطة،
وليست لديه أى نيات تتعلق بالمشاكل الداخلية فى العالم العربى أو
الإسلامى».

إن إنتاج تلك الأفكار فى مجال المناورة السياسية كان سيظل مجرد
خطب حماسية كالتى يجيدها البعض فى عالمنا العربى، إلا أن ما جعل
هذا الرجل لا يتكرر كثيرا ليس الظروف التى صنعتها فحسب ولكن
إقتران الفكر بالفعل .. فالفكر إن لم يوازيه تطور فى الفعل يتقزم أو
يتضخم، ويصبح فى الحالتين مثيرا للسخرية والرتاء .. لكن نصر الله
طورَ الإثنين معا، - مثلا - أنشأ بعد تسلمه أمانة الحزب العديد من
المؤسسات التى جرى تطويرها لرعاية أبناء الشهداء، وأعجبني أن تلك
المؤسسات لا ترعى أبناء الشهداء فى دور الأيتام .. وإنما ترعاهم فى
بيوتهم وإلى سن يكونون فيها ليسوا فى حاجة إلى رعاية تلك
المؤسسات، حتى يضمن تماما كل شهيد أن أبناءه وأهله لن يضاروا
باستشهاده، أيضا علاقة الحزب بالعمل الإعلامى شهدت تطورا كبيرا
خلال السنوات القليلة الماضية بعدما أصبح يمتلك أكثر من محطة
تليفزيونية وإذاعية أشهرها تليفزيون «المنار» وإذاعة «النور»، فضلا عن
مواقع متقدمة على شبكة الانترنت منها «العهد» و«المنار» و«نصر الله»،
وكذلك أنهت أفكار نصر الله التى تستند إلى مراجع شيعية كثيرا من

القيود حول دور المرأة - الحقيقي وليس الشعائري - في العمل بالتحديد في ظل ظروف إحتلال قاس أو وضع اقتصادي أكثر قسوة، فضلا عن وعيه وحزبه التام بظروف مجتمعه وعالمه.

لقد أدرك أن التنوع والاختلاف في الأفكار والمذاهب والأديان أصبح إما أن يكون أداة قوة أو أداة ضعف لحزبه .. وبخاصة في لبنان، فقَبِل تعاون الجميع معه ليصل إلى هدفه، حتى وإن لم يكونوا شيعة، بل وحتى إن كانوا ماركسيين أو شيوعيين وغيرهم! . صوت حسن نصرالله الذي يأتي هادئا ناعما عندما يتكلم في السياسة .. ويهدر عند ذكر العدو والحرب، ثم يعود إلى حد البكاء عند ذكر الحسين أو الاستشهاد، ينبئ عن رجل يعطى كل ذى حق حقه. الله والعقل والسياسة! .. ورجل بتلك العقلية لا ينتهي دوره برحيل عدوه عن أرضه، ولا يطول عمر حزبه بمجرد ثورة أو تحرير .. عندما سئل: هل تخططون لإقامة دولة الخلافة؟ قال: «نحن لا نفكر «الآن» بهذه الطريقة، ولا توجد خطط للوصول إلى مثل هذا الهدف، و«الأولوية» لحزب الله هي دفع مخاطر المشروع الصهيوني» . أعدتُ قراءة كلماته ووضعت الأقواس من عندي فوق كلمتي «الآن» و«الأولوية»، لأتعلم كيف أتكلم إذا كان الهدف كبيرا والسفر طويلا والزاد قليلا والأعداء ينتشرون في كل موضع .. قريبين .. وربما تحت الجلد!!!

الفصل الثاني 2



لتتال ماتريد.. ليس سوى العناد!

و أدار لي

قائد الميليشيا ظهره وأخذ ياتهم

طعامه. تولاني الذهول، واحتريت في أمري.

الضربة سانحة ومثالية. في حوزتي سلاح، وهو يدير

لي ظهره. أدخلت يدي في الحافظة التي أحملها إلى جانبي

وأخرجت.. مندبلا. تجسست حجم المسدس الثقيل لصق

خاصرتي، غير أنني الشيتني عاجزة عن التماسك. ليس

هكذا، ليس وهو يتناول الطعام، أيا كان، ليس من

الخلف، من الظهر،

أن

تصبح الحرب «خبزا يوميا» معنى قد يصلح لقصيدة، ومن الصعب أن تتصوره إن لم تعيشه عن قرب. لكن هناك قلائل تعتبر حياتهم تجسيدا لهذا المعنى لأنهم عاشوا - بالفعل - وكبروا داخل تلك الحرب.. ومنهم «سهى بشار» التي عرفت الحرب وهي في السادسة من عمرها، وتنقلت بين أكثر من قرية ومدينة في لبنان تحت القصف وهي تكاد تكون طفلة، ودخلت أول معسكر كشفى كعضوة في الحزب الشيوعي اللبناني وهي في الخامسة عشرة لتجد نفسها في نهاية الأمر تطلق الرصاص على قائد جيش لبنان الجنوبي العميل أنطوان لحد، ثم لتقضى عشر سنوات من زهرة شبابها في أبعث معتقل بجنوب لبنان «معتقل الخيام»، دخلته وهي تغادر المراهقة بقليل وعمرها ٢١ عاما، وخرجت منه بميرات العجائز في عمر الشباب، وردة عاشت حياة حافلة عبر تلك السنوات العشر من المهم

أرجو أن

لنقى «سهى»

في حياتها خارج

المعتقل كما هي

في مذكراتها عن

المعتقل، حيث لم

يعد هناك

«مناضلون»

حقيقيون

.. «بهتاء».. بعيدا

عن الورقة

التوقف أمامها بتأمل. وبالنسبة لى فقد أصابنى هذا التأمل بالكثير من الإحباط والإستفزاز معا.

عندما إلتهمت فى ليلة واحدة مذكرات سهى بشارة التى صدرت بالفرنسية وترجمت (عام ٢٠٠٢) إلى العربية لم يعلق فى ذهنى شىء أكثر إبهارا من صورتها، ليست صورتها المطبوعة بحجم كبير على الكتاب الذى يحمل اسم (مقاومة) - بكسر الواو ، ولكن صورة تلك الروح التى تحمل اسم شابة تدعى (سهى بشارة) إنها أقرب إلى الصلب المرن.. حياة تحمل الكثير من التفاصيل ، ولا تتصور أن هذا الجسد التحيل كان يحملها وحده.. وأجمل ما فى تلك المذكرات هى هذه العفوية المكتوبة بها والتسلسل الزمنى الأخاذ.. فهى تبدأ من «دير ميماس» موطنها حيث مولدها وهى قرية بجنوب لبنان سيعتدد إسمها كثيرا خلال تلك المذكرات لأنها ستنقل منها وإليها خلال مسيرتها الجميلة وهى تصفها بقولها: «دير ميماس هى قريتى فى جنوب لبنان، قرية وادعة لا أبسط من بيوتها المنة ذات الأسطح المتربة، والقائمة على سفح الجبل وفيها ثلاث كنائس وتحيط بها أشجار الزيتون من كل ناحية.. قريتنا مسيحية وعائلتنا من الطائفة الأرثوذكسية واسم عائلتنا العربى ينبئُ بالبشارة التى أعلنها الملاك لمريم العذراء».

ولدت سهى فى «دير ميماس» يوم ١٥ يونيو ١٩٦٧. وفى عبارات دالة تتذكر: «لم أحتفل يوما بعيد مولدى ولاسيما فى ذلك العيد الذى بلغت فيه الخامسة عشرة. فالخامس عشر من يونيو فى العام ١٩٨٢

لم يكن جديرا بأى احتفال وكنا نعد العدة لمغادرة بيتنا فى اتجاه منفى آخر فى الجنوب. وكان أعدائى على مدى نظرى: الاسرائيليون يعسكرون لدى بوابة مدينتى منتصرين».

تلك الرؤية المشحونة بالغضب التى تتحدث عنها سهى بإتجاه الإسرائيليين وهى إينة الخامسة عشرة.. رؤية راسخة لديها، وترتبط عليها منذ كانت ترى عن بعد عبر تلال قريتها التى أدركت منها أن (دير ميماس) على مرمى حجر من إسرائيل وتصف ذلك.. «كان يكفى المرء أن يسلك الطريق التى تجتاز القرية إلى خارجها حتى يبلغ إلى أول خط حدودى»

ورغم كل ذلك فإن أحداً من أهل دير ميماس لم يكن يتصور أن إسرائيل ستجتاح الجنوب وتصل إلى بيروت فى ١٩٧٨ وبشاعرية ثاقبة تتحدث سهى عن طفولتها المختلطة بهواجس إسرائيلية «كنا لا نزال إلى حينه نتجاهل وجود جيراننا إلى الجنوب من أرضنا أو كأئنا سترنا وجودهم بألف حجة حتى لكأننا إذ نطردهم من أذهاننا نعوض عن طردنا إياهم من الأرض التى باتت أرضهم»

ومنذ البداية تبدو سهى وكأنها مرشحة لحياة ما.. فهى ولدت غداة نكسة ١٩٦٧ - ١٥ يونيو - وكانت - على حد قولها - «الجيوش العربية تجرى أذيال الهزيمة على يد الجيش الإسرائيلى وكان جمال عبدالناصر فى هذه اللحظة بالذات ومن القاهرة يقدم استقالته إلى شعب مصاب بالذهول من رؤية رئيسه الأسطورى يتهاوى. ولئن كنت ولدت فى يوم هزيمة للعالم العربى فإننى فضلا عن ذلك آخر

المولودين في عائلتي، تزوج والدائ عام ١٩٥٨ وكان كل منهما في العشرين من عمره، فكان أن ولد أخي «عدنان» في السنة التي تلت زواجهما، ثم أبصرت النور أختي حنان، وفيما بعد ولد أخي عمر، وفي آخر العنقود كنت أنا أخيراً. ولربما أتت تسميتي «سهى» وتعني النجمة تيمنا وطلبا للبقاء». والد سهى «فواز» شيوعي نقابي منذ سنواته الأولى، فضلا عن إثنين من أشقائه، وبدأت «سهى» في «إتحاد الشباب الديمقراطي» وإنخرطت في المعسكرات الكشفية واكتسبت خبرات كبيرة إلا أنها كانت طوال الوقت نسقا خاصا وحدها.. وكان هناك شيء دقيق يتكون في داخلها لا علاقة له - مباشرة - بالعديد من الأفكار التي تتداولها علنا، اهتمامها الخاص كان مادة الرياضيات التي تفوقت فيها ، وحصلت على أول عائد مادي في حياتها من تدريس تلك المادة خصوصيا ، فكانت تتكفل بمصاريفها وهي لم تتجاوز الرابعة عشرة بعد! تقول :

«إكتشفت مبداً ثبت لي صدقه فيما بعد: وهو أن الناس توكل مسئوليات الى الناس الأكثر حيوية أيا كانت أذواقهم وميولهم حياله» ، هكذا فهمت سهى الطريق منذ البداية ، فكانت محافظة على حيويتها طوال الوقت في ظل سماء من الإحباط كانت تخيم على لبنان خلال حريها الأهلية.

منذ بداية السبعينات بدأت «سهى» تتعرف على كثير من المفردات والأجواء السياسية ، بداية من صورة الإسرائيليين في أرض الواقع إلى الظلم الكبير الواقع على الفلسطينيين، وتذكر «في العام ١٩٨٠

وكنّت لا أزال في الثالثة عشرة حضرت للمرة الأولى في حياتي حفلا للأغاني الملتزمة، وذلك في مقر الانيسكو ببيروت. ولم يقبل المساء حتى امتلأت القاعة بالحضور الذين أقبلوا لسماع مارسيل خليفة، وتضيف «إلا أن السنوات اللاحقة ولاسيما إثر دخولي إلى الجامعة جعلتني أتبين بوضوح عمق الإنقسامات التي إنتهى إليها شعبنا!» والحقيقة أن حياة «سهى» التي عرضتها عبر مذكراتها تؤكد أنها واجهت تلك الانقسامات منذ البداية بعلاج واضح وفعال، وهو إختيار هدف محدد.. عرفت العدو فالترمت بتكريس حياتها للقضاء عليه بقدر ما تستطيع.. العدو: إسرائيل.

ومع إجتياح لبنان ١٩٨٢ - تقول سهى - «للمرة الأولى في حياتي أرائني في مواجهة عدوى. وإذ غشيتني هذا الفكرة صرت أترجح بين الخوف منه وتحديه».

لكنها أيام قليلة وحسمت سهى اختيارها ، فهي الملتزمة حزبيا وصاحبة الحيوية المتدفقة نفسها فلا يمكنها أن تخاف مثلنا واختارت التحدى، وكانت رحلة مغادرتها مع أهلها الجنوب إلى بيروت عقب التمهيد للاجتياح من أهم أسباب ميراث التحدى - الذى تحول إلى عناد فيما بعد - بداخلها وتصف بعين سينمائية رائعة تلك الرحلة والوجوه التى كانت خائفة وحائقة فتقول: «كان الأغنياء الأسبق إلى مغادرة بيروت بالطائرة أو بسياراتهم أما الذين بقوا فكانوا من الفلسطينيين أو اللبنانيين «الأشد فقرا»..»

وبدأت فى تلك الأجواء صورة الفلسطينيين أكثر وضوحاً أمام عيني
سهى... « وراح والدى يصف الدموع التى سكبت، والوهن والصمت
المطبق للذين حلا على المدينة وهى تودع هؤلاء الإخوة المنهزمين
والمكروهين من بعض منا، ويغادرون موطن لجوئهم البائس مبحرين
ولمرة أخرى بإتجاه المجهول. وعلى حد ما روى والدى، فقد تملك
البلاد شعور من المأساة، نادر بإجماعه. ذلك أن والدتى شاعت أن
توافى والدى إلى بيروت فى الفترة عينها، وكانت تبدي رغبة حيال
أبو عمار، غير أنها مضت ترسل عبارات المأساة حياله وترثى
لوضع شعبه وقواته، وللمرة الأولى على ما أذكر. كأن صفحة طويت.
بيد أنى ظلمت على يقين بأن هذا الرحيل لن ينهى المسألة على
الإطلاق. وكان من الأكيد لي أن الإسرائيليين أثاروا الذريعة
الفلسطينية، وأحسنوا استخدام انقساماتنا ليطلقوا وجودهم فى
لبنان لآماد غير معروفة. غير أن الكلمات الأشد إيلا ما كانت تلك
التي وصف بها والدى، مخيمى صبرا وشاتيلا، والمجازر التي
إرتكبت فيهما ضد سكان هذين المخيمين الواقعين جنوب بيروت.
آلاف من الأشخاص لقوا مصرعهم فى هذه المذابح، التي كان
الإسرائيليون مجرد شاهدين فيها لكونهم يراقبون مداخلهما.
وخرجت الأحزاب الوطنية اللبنانية وعرفات، وسرعان ما حملت
إسرائيل وحلفاؤها، وميليشيات سعد حداد، والقوات اللبنانية
والكتائب المسؤولية كاملة».

كانت «سهى» طوال هذا الوقت تستشعر شيئاً فى داخلها، عبرت

عنه بصدق فى عبارة سريعة هنا.. «منذ الإعلان عن ولادة جبهة المقاومة اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلى فى السادس عشر من سبتمبر فى العام ١٩٨٢ كفتت عن الضياع وعرفت سبيلى. قررت أن ألتزم، ولكن ماذا يُقتضى أن أعمل، وفى أى ظروف، ومع من؟ لم أكن أعرف جواباً عن كل هذه التساؤلات»، لكنها على الأقل إلتزمت. وفى ظل هذا النوع من النضال والالتزام لا يفوت «سهى» أن تتحدث كأُنثى عاشت وتعيش حياة ككل البشر فيها العواطف والعواصف.. «والحال أن تحول المقاومة إلى نطاق السرية فى بيروت لم يكن ليسهل أمر ذلك التواصل. وكذلك لم يكن هذا التكتّم الشديد الذى لبثت أحفظ فيه قناعاتى العميقة، سواء داخل عائلتى أو لدى أقربائى، ليسهل على الأمر نفسه. وحين كنا نناقش فى الإتحاد مسألة إقتدارنا على القيام بأعمال جريئة، كنت أحذر جيداً من إبداء أى ميل فى إلى هذه الشعلة التى ملكت كيانى منذ أيلول/ سبتمبر الشهير ذاك. فجهدت، على الدوام، فى أن أبدو طالبة نجيبة، تنفر من الخروج إلى السهرات، وتؤثر أن تظل فى المنزل لتعمل، ومندوبة عن الطلاب نشطة غير أنها لا تخرج عن المعقول، وذات رشاد وورزانة، فى حين بطل أن يكون عطاء الذات والتضحية بالنفس فى سبيل القضية، على حساب الشعارات الطنانة، أمرين محرمين منذ العملية الإنتحارية الأولى التى نفذتها فتاة لبنانية فى القطاع المحتل عام ١٩٨٥. سناء محيدلى، ذات الثمانية عشر ربيعاً، شاعت أن تفجر بنفسها القنبلة التى كانت تحملها لدى مرور دورية إسرائيلية.

ولئن كنت مسالة فى طويتى، فإن هذا المثال الذى صعقتنى جعلنى مستعدة للنضال. والنضال دونه الكثير من الصعوبات، ولأجله يضحي بالكثير من الأمور. وما أنا وقد بلغت الخامسة عشرة، ذلك العمر الذى يصير فيه متوقعا أن تنمو بين الشباب، فى مرحلة المراهقة، وبين الفتيات، سواء فى المدرسة أو فى الاتحاد، مشاعر تتجاوز المصلحة البحتة.. أو مشاعر الحب والهوى، وفى هذا الشأن، كنت موضع إعجاب من قبل أحد أصدقائى. وكان عضوا فى الحزب الشيوعى، وما برح ينظر بشئ من الإحتقار إلى أعضاء الاتحاد، وينعتهم بغير الناضجين لأنهم لا يفكرون إلا فى اللهو. ورحت أصغى إليه وهو يبوح لى بحبه، هذا البوح الأول فى حياتى. لم أثبط عزيمته، إلا أنى، وبعد تفكير عميق، صرت على يقين بأن حكاية الحب هذه ربما تحول دون المضى فى مخططى المستقبل. وكنت، إلى حينه، لا أزال أعرض خدماتى لمرافقة هذا الشخص أو ذاك للعبور فى سيارته إلى نقطة فى بيروت. فإذا ما كنت أمضى قدما فى اقتراحاتى، فلأنى كنت أعرف أن وجود زوجين فى سيارة واحدة يثير من الريبة أقل مما يثيره رجل مفرد - ولا سيما إذا كانت السيارات التى استقلتتها ناقلة للأسلحة والذخائر، على الأغلب. فإن يلتزم المرء ويزيد من إلتزامه، لأمر يستتبع عواقب غير محسوبة. أضف إلى ذلك، فإن الأمثلة التى عاينتها من حولى كانت تردعنى عن مزاجية المشاعر بالمقاومة. وفى خلال بحثى الدؤوب عن شبكات المقاومة، تقربت من رفيقة فى الحزب ولها صديق ينتمى إلى تنظيم

ماركسى. وكنت أعرف أن هذا الصديق يشك فى كونه مشاركا فى عمليات حربية. وكلما أبدت له صديقتة رغبتها فى الالتزام والقتال إلى جانبه، واجهها بالرفض القاطع، محتجا لها بالمخاطر الكثيرة. لم يكن يشاء أن تخاطر فى شىء. ولهذا السبب انتهى بهما الأمر إلى الانفصال.

وبالنسبة إلى «سهى» فقد إنتهت إلى أن القول «فى الواقع كان إختيارى فى ألا يكون لى صديق قليل الكلفة إذ لم يكن يشغلنى سوى أمر واحد، الدخول فى المقاومة، وعانيت الكثير لأجل أن يتحقق هذا الطموح»، وبداية تحقيق طموحها كانت بقاء مع «مازن» فى أحد أبنية بيروت الغربية، ومن يومها إتصلت بإحدى خلايا المقاومة وعرفت عالما جديدا من الاحتياطات الأمنية، الرموز، وبدأت حياة من الانفصام المدرب، فكانت تعيش وسط أهلها وقريتها التى عادت إليها فى الجنوب بشخصية تقترب من حد السذاجة، وتعيش مع نفسها حياة النضال والإعداد لعمل كبير لم تكن تعرفه بالضبط إلا أنها كانت تدرب نفسها على الانتقام من الإسرائيليين بأوجع وسيلة. وعن شهر يولييه ١٩٨٧ تقول «باتت نصب عيني خطة محددة للغاية وهى فى أهداف ثلاثة: رجال الأمن فى جيش لبنان الجنوبي، والإسرائيليين، وأنطوان لحد شخصيا». - وأنطوان كان قائد ما يسمى بـ "جيش لبنان الجنوبي" العميل لإسرائيل - .

وجاءتها الفرصة.. بالمصادفة إذ كانت «مينرفا» زوجة أنطوان لحد فى حاجة إلى مُدرّسة ترمينات رياضية لتقييم مدرّسة تدريب فى هذا

المجال، وتقدمت «سهى» للعمل لديها وقبلتها «السيدة الأولى فى لبنان الجنوبي».. على حد وصف «سهى» الساخر لميرفا. وبدأت «سهى» تتردد على منزل «لحد» وتحدد لها راتب «خمسة دولارات عن الشخص الواحد» وقبل أن تواصل العمل بشكل دائم حصلت على أجازة.. «وحين أخذت أجازة، تبدى لي أن ثمة قرارا يسهل سبيله إلى النضوج فى ذهني شيئاً فشيئاً، فها أنا أخيراً فى الساحة قريبة جدا من الهدف الذى وضعناه نصب أعيننا. وعليه، فإنه يعود لى وحدى أن أقوم بالمهمة الأعظم طموحا مما كنا نتخيله فى هذه الأثناء. أن أقتل انطوان لحد».

بدأت «سهى» عقب ذلك العيش «كمقاومة» عنيدة.. تُقابل أعضاء خليتها فى «مقهى حيث اعتاد العشاق على اللقاء». وأصبحت لغة الإشارات والعلامات طريقا للتواصل مع هؤلاء الأعضاء، ومن أطرف ما ذكرته أن التلويح بعلبة «المارليورو» كان علامة على وجود رقيباً!.

وزيادة فى التمويه بدأت تحبك «سهى» القصص لتبرر غيابها بعيدا عن قريتها ، أولاها أنها وقعت فى قصة حب وهو الأمر الذى كان يتمناه الجميع لها لعلها تتزوج، بعد أن كانت أبعد ما تكون عن هذا العالم، ولزيد من التعمية كانت لا تتحدث إطلاقا مع أحد فيما يتعلق بجيش الاحتلال أو أى موضوعات سياسية، والمثير أن أحد شرائط الفيديو أظهرها كراقصة وسط الإسرائيليين، خلال زيارتها لمنزل حداد: وانتشر الشريط بين أهل قريتها وأغضبهم ذلك ولم يغضبها

هى، نظرا لما كان يعنيه ذلك من تأمين لها فى خطتها. أخيراً تسلمت «سهى» المسدس لتنفذ به عملياتها وأخفته داخل جهاز التليفزيون بغرفتها وظل فى مكانه حتى بعد تنفيذ العملية لأنها نفذتها بمسدس آخر!

أما الإلتزام الصارم فهو لا يتجزأ ، سواء على المستويات العقائدية أو الاخلاقية.. أو حتى العاطفية، وهذا ما سلكته «سهى» عند أول فرصة لقتل «لحد». «وذاث يوم - تقولى سهى - حدث ما لا يعقل. فبينما كنت أتحدث مع مينرفا، إذ بزوجها يدخل إلى المنزل، فوافانا وتبادلنا بعض الكلمات حول الدروس. واقتَرحت عليه امرأته أن يتناول شيئاً. ولما كان الجوع هده، قبل عن طيب خاطر. للجال، إعتذرت مينرفا مني، فتركنتى وحدى برفقة زوجها. واصلنا أحاديثنا، إلى أن أتت بالطعام، ثم غابت عنا، من جديد. أدار لى قائد الميليشيا ظهره وأخذ يلتهم طعامه. تولانى الذهول، واحترت فى أمرى. الفرصة سانحة ومثالية. فى حوزتى سلاح، وهو يدير لى ظهره. أدخلتُ يدي فى المحفظة التى أحملها إلى جانبي وأخرجتُ.. منديلا. تحسست حجم المسدس الثقيل لصق خاصرتى، غير أنى ألفتنتى عاجزة عن التماسك. ليس هكذا، ليس وهو يتناول الطعام، أيا كان، ليس من الخلف، من الظهر. وكنت عاجزة عن قتل عدوي فى ظروف مماثلة. وفى لحظات، غادرتُ المنزل والإرتباك يهز كياني، بعد أن استأذنت ضيفي الذى بدا أنه لم يشك فى شىء. وعلى الرغم من أنى بقيت عازمة على إتمام عملى، فقد تبين لى، وللمرة

الأولى، مقدار الصعوبة فى هذه المهمة. إذ يقتضى الإغتيال، أيا تكن
شرعيته فى نظرى، جرأة على تجاوز نفسى. وفى هذا الصيف من
العام ١٩٨٨، وبعد ثلاثة عشر عاما على اندلاع الحرب الأهلية،
والفضائع من كل الأنواع التى إرتكبت فيها، أدركتُ آخر المطاف
أننى ما زلت أنفر من اللجوء إلى القوة والفظاظة، ما دمت آنف من
رؤية مشاهدة العنف على شاشة التليفزيون. وحتى لو كان ما أراه
محض إختلاق وتخيل، شأن عمليات تفجير السيارات، فإنه سرعان
ما يذكرنى بالجرحى الذين اهتممت بهم، ويصور القتل الذى لم
تقس أطيافهم طباعى ولا مشاعرى».

ورغم ذلك فإن موقف سهى لا يلين إذ أنها مخلوقة من العناد
والاخلاص للهدف، فقد جاءت الفرصة من جديد.. فكان شيئا لم
يكن.. فاليوم موعد تنفيذ العملية.. «صباح الاثنين، إرتديتُ بنطلونا
أزرق، وقميصا أبيض، وانتعلتُ باليرين سوداء، وأمكننى الدخول
إلى ذلك البيت الجميل الذى يقيم فيه الزوجان، من دون أن أثير ريبة
أحدهم أو شكه.. إنها الرتبة.. هناك وافيت مينرثا وصديقة لها
إسبانية، وكانتا فى الحديقة، ثم عدنا والتقيننا بزوج هذه الأخيرة فى
قاعة الاستقبال. وفيما بعد، وأفانا انطوان لحد. كان الجو بهجا. كنا
نتكلم الفرنسية، وجعلت مينرثا تترثى، مرة ثانية، لعقليات الناس
الضيقة فى المنطقة المحتلة. ومن ثم انتقلنا إلى قاعة الجلوس. وكان
قائد الميليشيا جالسا قرب الهاتف، وكنت على يمينه، تماما كما
تخيلت المشهد. وأخذت الأحاديث تصير عابثة. أمسكت عن الكلام،

ونأيت بنفسى عن الحوارات الجارية. كنت أصغى. وبعد نصف ساعة أتت الخادمة وسألتنا عما نرغب فى شربه. تمتعت ببعض الكلمات شاكرة.. وقلت إن الوقت بات متأخرا وينبغى لى العودة. وأصر مضيفى على البقاء فأصطنعت البقاء لياقة. أشعل قائد الميليشيا التلفزيون. كانت ساعة الأخبار على قناة المنطقة المحتلة. مر تحقيق عن الانتفاضة. وأُتيح لى أن ألمح فتى فلسطينيا وهو يرمى بالحجر. وكان أنطوان لحد يلهو باللاقط ويستمع من غير إنتباه. فى هذه اللحظة رن الهاتف. رفع السماعة وللحال تقطب وجهه. كان محدثه فى الطرف الآخر من الخط، يعالج مواضيع لا تروقه. فى الظاهر. وجهت نظرى صوب ساعة الجدار. كانت الساعة لم تبلغ الثامنة مساء بعد. وبدا انطوان لحد، الجالس عن يمينى، يواصل كلامه. وللحظة وقع نظره علي وأخذ يرمقنى بشئ من الفضول، جذبت نحوى الحقيبة الموضوعة لدى قدمى. وكنت هادئة هدوءا غريبا. دسست يدي فى الفتحة مشيرة إلى مينرفا بأنى جلبت لها المفاتيح والشرائط المسجلة التى طلبتها منى. وفى خفية عن الأنظار، قبضت يمينائى بشدة على أخمص المسدس. وفيما أنا جالسة، أخرجت قبضتى المسلحة بالمسدس من الحقيبة، وببرودة أعصاب، وللحال صويت، بذراعى اليمنى، نحو قائد الميليشيا، وأسندت معصمى ببسراى. وعلى التخمين، صويت نحو القلب. وضغطت على الزناد للمرة الأولى، وظننت نفسى أرى الطلقة وهى تخترق سترة الثياب الكاكية لقائد الحرب هذا. فما كان من انطوان

لحد إلا أن قفز على قدميه، مذهولا، تماما كما توقع أحمد (رئيسها في التنظيم). وسمعتُ شتيمة تخرج من بين شفثيه: «بنت الكلب!». فأطلقتُ ثانية، على ما توقعنا. سقط أرضا. توقفت الحياة لثانية في قاعة الجلوس. وما هي إلا لحظة، حتى شق الصمت عويل مینرُفا وقد أصابها الإنهيار، وراحت تملأ الفضاء صراخا طالبة سلاحا لتقتص مني، وطوافة عسكرية لإخلاء زوجها. ورميتُ من حولى بنظرة دائرية، فوجدت الصديقة الإسبانية باهتة، تحديق بي وفي عينيها ما ينم عن اختلال. أما زوجها الذى شله الرعب، فراح يرمقنى وكأن دوره آت لا محالة، فأغتنمتُ فرصة الذهول هذه ورميت بالمسدس فى غرفة النوم المتفرعة عن قاعة الجلوس، وأردت أن أكسب بعض الوقت. ولسوف يبحث الحراس عن السلاح، وحين يفتشون الغرفة يجدونه، وهذا ما لن يتأخر حصوله. وعلى بعد مترين مني، رأيت جسد أنطوان لحد يدور على نفسه أرضا، ويتوقف بلا حراك. تم لى ما أردت، ونجحت فى القيام بعمليتى.

كانت «سهى» تعرف مصيرها، لكنها لم تعرف تماما ما الذى حدث لـ «لحد» هل قتلته رصاصاتها أم لا.. بمرور الوقت عرفت.. لكن كان وقتا طويلا.. زمنا آخر.. عشرة أشهر متواصلة من التعذيب داخل المعتقل البشع.. «الخيَّام»، بداية بالضرب المبرح بالسياط والتعذيب بالكهرباء والحبس الانفرادى داخل زنزانة عرضها ٨٥ سنتيمترا وارتفاعها متران ونصف المتر فقط.. ألوان من العذاب لم تثبط هممتها.. حتى بعد أن عرفت أن خصمها لم يميت قالت بكل ثقة..

«سأركز جهودى للبقاء» المهم أن الرسالة وصلت للإسرائيليين تقول بهشاشة وضعهم، وأكذوبة ضمانهم لأمنهم.

«خروج المرء من معتقل الخيام حيا ليس بالأمر الأكيد. ولا سيما النساء السجينات. ذلك أن الحياة اليومية فى معتقل الخيام كفيلة بأن تتلف أعظم السجناء بنية. ويكمن هذا الأمر جزئيا فى المناخ المحيط بالمعتقل. فلما كان الأخير يقوم جنوب بيروت، وفى مرتفع من جبال حرمون اللبنانية، وجدته خائفا فى الصيف وجليديا فى الشتاء. ويحدث، كذلك، أن يحل الثلج ضيفا على هذه المرتفعات. أما الأبنية، شأنها فى كل البلدان ذات المناخ الحار، فليست مُعدة لمجابهة البرد على الإطلاق. وليس فى الزنازين مياه جارية، إنما حرمان النزلاء فيها من كل شئ هو المبدأ. والمعتقلات يملكن أغطية وفرشا عتيقة محشوة بالاسفنج لينمن عليها. أما البطانيات فكانت نادرة، وفوق ذلك فقد رأيت المعتقلات المبنية على أسوأ هيئة تحيل أرضها بؤرة للأمراض والعلل. فالرطوبة، إذ تخرج من الأرض، وتنسل بين ثنايا الفرش عبر التكاثر، تنخر عظام السجينات نخرا وتجمدها، بالإضافة إلى فرش القش وأنابيب الحديد لنقل الماء، كانت السجينات يتبادلن دلو من البلاستيك لوضع البراز فيه، وأحيانا يكون هذا الأخير بلا غطاء. وكانت هذه الدلاء تفرغ مرتين يوميا، فى عز البرد وفى قيظ الصيف، على حد سواء. والواقع أن هذا الدلو هو بمثابة وعاء من بين أوعية كثيرة هيئت بالأساس، لتكون صفائح يخزن فيها الزيت للمطبخ. بالطبع، كانت النساء

محرومات من العناية بأنفسهن فى الحدود الدنيا. إذ توجب عليهن، مثلاً، أن يصنعن لأنفسهن فوطاً صحية من خرق أثوابهن، ويغسلنها باستمرار ويعدن غسلها مرات ومرات».

إيقاع الحياة ثابت فى معتقل الخيام. توقظ السجينات فجرًا ويتناولن فطوراً بسيطاً للغاية. ويكون عليهن أن ينظفن الزنزانة حيث هن، ثم يتناولن فى الخروج كل بدورها لإفراغ الدلو، وفى الاستحمام داخل غرفة ضيقة أعدت لهذا الغرض، وتعود بعد أن تملأ صفيحة المياه المخصصة بهن. وكانت أوقات خروجهن من الزنزانة محسوبة حساباً شبه عسكرى، ومحددة بخمس دقائق، ليس إلا. ومن تتأخر منهن تتل عقوبة شديدة. وعند الظهر، يحمل غداء ضئيل إلى الزنازين. وفى منتصف العصر، تقدم بعض الأطعمة. إذا كانت آونات النهار الثلاثة هذه وحدها تمنح المعتقل حيوية لافتة. أما بقية الوقت فكان الصمت هو القاعدة، ومن يجرؤ على الصياح ينل عقابه. وكذلك فإن السعال ممنوع. وعليه يمكن للسجينات أن يتحادثن بصوت خافت، داخل الزنزانة نفسها، إلا أن تبادل الأحاديث مع النساء فى زنازين أخرى ممنوع، لدواع أمنية».

كانت «سهى» تتصرف وكأن الوضع إستتب لها فى المعتقل وقالت لنفسها «مادمت لم أمت وسلاحى فى يدى ، وأن إعدامى صار مستبعداً، فقد بات علي أن أهيب نفسى لفترة اعتقال طويلة» وحددت لنفسها تاريخ الخروج عام ٢٠٠٠ وكان تحليلها يستند إلى أن الإسرائيليين سيغادرون لبنان فى هذا التوقيت.. أى بعد ١٢

عاما من اعتقالها، أما لماذا ١٢ عاما؟ فتجيب هي «ربما لأنهم كانوا دخلوا إلى لبنان واحتلوا جنوبيه لإثنى عشر عاما» وبدأت «سهى» تعمل على مواصلة حياتها فى السجن رغم كل المعاناة، بداية من التمرينات الرياضية التى كانت تؤديها جالسة حيث لا تستطيع القيام داخل زنزانتها الضيقة وإلى التدريب على مضغ طعام الوجبة الوحيدة التى كانت تتناولها يوميا.. ببطء.. حتى لا تحدث لها مشاكل فى المعدة.. تعلّمت الرسم، وكانت المتعة الوحيدة لها ولكل السجينات الإصغاء لوقع أقدام السجانات، ولا تنسى يوم العثور على كنز تمثل فى «مسمار» دقيق فى نعل أحد الأحذية. وتصف.. «وجعلنا الليل كله نحك رأس المسمار الفولاذى بقطعة هى خيط نحاسى كان يستخدم لوصل الكهرباء، ولما كان الفجر، والألم يشل أصابعنا توصلنا إلى ثقب خيط النحاس وادخلنا فيه رأس المسمار، هكذا صارت لنا أبرة للخياطة».

كوّنت «سهى» صداقات مع زميلات خلال الاعتقال، أبرزها مع «كفاح» و«حنان» فضلا عن الاعتياد على شخصية «أبو نبيل» البغيضة، والسجان والمحقق الفظ.. وانقضى صيف ١٩٩٨، وفى الثالث من سبتمبر لنفس العام فى الساعة التاسعة وخمس عشرة دقيقة أُطلق سراح «سهى»، وعرفت ساعتها أن سنوات عشرين مضت عليها فى المعتقل، ونامت أول ليلة لها فى حريتها الجديدة فى منزل عمها ببيروت، واستيقظت لتكتب عن أول ليلة تلك «بي شعور معاكس لذا الذى تولاى فى السجن طيلة عشر سنوات، ففى معتقل الخيام

كان يملكنى الشعور نفسه بأننى مازلت فى منزلى ببيروت ولما صرت فى بيروت أخذ يتولانى الشعور بأننى أستيقظ فى الاسر، ولم يبارحنى هذا الشعور، ظل معى لزمان طويل..

شخصياً كنتُ أتمنى أن أعيش كثيراً مما عاشته «سهى»، إلا أن الوقت قد فات، إذ جئت قبلها إلى الدنيا بعام، لكن مازالت أمامنا - أنتم وأنا - فرصة لتتزود بتلك الطاقة الجبارة من التصميم والعناد اللذين وشما حياتها على أروع صورة.. لم أقرأ كتاباً - منذ فترة - تمنيت أن يقرأه الجميع مثل تلك المذكرات، التى تُعَلِّمُ الناس بكل هدوء وتواضع، كيف يترفعون على صغائرهم ونزواتهم ومتعهم.. لأول مرة منذ سنوات طويلة أقابل - على الورق - «مناضلاً» حقيقياً.. وأصدقّه.. وأرجو أن تظل «سهى» كما هى فى مذكراتها، حيث لم يعد هناك «مناضلون» حقيقيون.. «بيننا».. بعيداً عن الورق!

3 الفصل الثالث



عقل مفاوض.. قلب منتفض!

واللهذا هو
القلنس، وليست الأدوات، وهي قابلة لإعادة
النظر في كل لحظة.

في هذه الدنيا.. إما أن تلعب على كل الأحبال، فتكون بلا قلب ولا مبدأ، وتكسر رقبة كل من يُصدِّقُ عندما يكتشف كذبك فوق كل حبل تمشى عليه. أو أن تمشى على حبل واحد، فتكون رقبتك على كفك معرضة للكسر في كل وقت، فأعصابك مشدودة طوال الليل والحلم والنهار، تخشى الوقوع في «المحذور» الرابض داخلك أو خارجك، يراك الناس - فوق الحبل - بهلواناً، وأنت في الحقيقة أكثر هواناً مما يتخيلون، وأرفع منزلة مما يتصورون، لأنك في نهاية الأمر مشروع قتيل بالإخلاص، أو شهيد يحلم.. بالخلاص.

«مروان البرغوثي» من هذا الصنف الأخير، إختار حبلاً واحداً يمشى فوقه، يمتد بالطول أو بالعرض، يحلم بالوصول - فوقه - إلى الأرض والعرض، واختار الصراخة طرياً، محاذراً مصيرها الذي قال عنه صلاح جاهين:

- «أما الصراخة فأمرها ساهل

لكن لا تجلب مال ولا تصون.. عرض!»

إن عرفات
لو عرف أنك
ستخلفه ولو
بعد ٥٠ عاماً
سيكرهك
الآن..

ما أصعب اختياره، وما أقسى مشواره.

مسيرة «مروان البرغوثي» تدعو للإعجاب الشديد، وتصيبك بعدم
الحياد في بعض مراحلها من فرط سعادتك بوجود تلك النماذج
الناضجة على أرض ، نماذج أنضجتها الدماء، التي أقرزت - بنفس
القدر - الشرفاء والعلماء!

فالحبل المشدود بين مسيرة وحياة «البرغوثي» وبين أهدافها له
ظاهر وباطن، ظاهره الانتفاضات، وباطنه المفاوضات، فهو رجل
سياسة بمعنى الكلمة وإن تم تقديمه لكثير من الجماهير العربية
خلال الإنتفاضة الثانية كزعيم جماهيري غاضب فحسب، لكنه يُعتبر
خير نموذج يمثل القدرة على استخدام السلاح - أى سلاح متاح -
والسياسة، لكن ليست كل سياسة متاحة، فهو يعتبر كل من يفاوض
على حدود لا تبدأ من حدود ١٩٦٧ خائناً، وهو في الوقت نفسه
يقول في حديث صحفي: «علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن كل عمل
يستهدف تحقيق أهداف سياسية، بمعنى أنه لا يوجد عمل من أجل
العمل بحد ذاته، فالهدف هو المقدس، وليست الأدوات، وهي قابلة
لإعادة النظر في كل لحظة». وتلك الفكرة المحورية هي التي تدور
حولها - حتى الآن - حركة وأهداف «البرغوثي» منذ تم سجنه وهو
في نهاية المرحلة الثانوية وإلى سجنه الآن (٢٠٠٢) في بداية مرحلة
قد لا يعرف هو نهايتها، لكنه اختار نهايته التي تشبه كل بداياته
النضالية.

....

....

بإختصار شديد، «مروان البرغوثي» عمره الآن لا يتجاوز ٤٢ عاماً، حقق خلالها إنجازات تبدو متباينة، فهو من أهم الكوادر السياسية لحركة فتح، وفي الوقت نفسه تزعم الانتفاضة الثانية ضد الإسرائيليين، والانتفاضة الأقصى ضد رموز السلطة الفلسطينية بمن فيهم «عرفات» نفسه.

«مروان البرغوثي» من مواليد ٦ يونيو ١٩٥٨، أى أنه من مواليد برج «الجوزاء» الذى يجلب الشقاء لصاحبه فى معظم الأحيان، وهو مولود فى قرية صغيرة إسمها «قادر» بمحافظة «رام الله»، ينحدر من أسرة من الفلاحين البسطاء، وتعلّم حتى المرحلة الإعدادية فى مدارس القرية، وبدأ مسيرة النضال والاعتقال منذ كان فى المرحلة الثانوية، حيث حصل على شهادتها داخل السجن، إلى أن وصل إلى جامعة «بيرزيت»، وبالطبع كان ناشطاً طلابياً بارزاً وتخرج فى الجامعة بعد ١١ عاماً، ليس بسبب النشاطات الطلابية السياسية ولكن بسبب تكرار اعتقاله. وخلال مرحلة الجامعة تم انتخابه رئيساً لمجلس طلابها ثلاث مرات متتالية، كما أنه حاصل على الماجستير فى الدراسات والعلاقات الدولية.

من المهم الإشارة إلى أجواء وملامح مدينة «رام الله» تحديداً، لأنها أسهمت بدرجة ما فى تشكيل شخصية ووعى «مروان البرغوثي» بإنفتاحها رغم ضيق الاحتلال، وهى مدينة لا يمكن تجاهل المرور بها، أو نسيان رؤيتها كما يظهر فى كتاب «برغوثي»

آخر هو الشاعر «مريد البرغوثي».. (رأيت رام الله) ويقول فيه:
 «عجيبه رام الله متعددة الثقافات، متعددة الأوجه، لم تكن مدينة
 ذكورية ولا متجهمة. دائماً سبابة إلى اللحاق بكل ترف جديد. فيها
 شاهدت الدبكة كأني في دير غسانة، فيها تعلمت التانجو منذ
 سنوات المراهقة. وفيها تعلمت لعبة البلياردو في صالون «الأنقر».
 وفيها بدأت أحاول كتابة الشعر. وفيها نشأ اهتمامي بالفن
 السينمائي منذ الخمسينيات عبر برامج سينما «الوليد» و«دنيا»
 و«الجميل»، وفيها تعودت، على الاحتفال بالكريسماس ورأس السنة.
 لم تلاحقنا عيون فضولية أبداً ونحن نذهب إلى مقهى وحديقة
 «ركب» شباناً وصبايا لتناول الشوكالامو والبيتش ملبا والميلك شيك
 والبنانا سبلت. في ظلال أشجاره الجميلة وعلى أرضيته المفروشة
 بالحصى الأبيض. سهرنا مع أصدقائنا وأهالينا في منتزه رام الله،
 ومنتزه البيرة ومنتزه نعيم، كنا نتعرف على ملامح بعض المشاهير
 الذي يتحلقون على الموائد الأنيقة في فندق عودة وفندق حرب،
 يرتدون الطرابيش ويناقشون القضايا السياسية وهم يمسون
 بخراطيم «الأرجيلة». رام الله كانت شديدة النظافة في شوارعها
 ومطاعمها ومقاهيها ومنتزهاتها وكذلك مدينة البيرة، المدينة التوأم
 لرام الله، وفي رام الله عرفت المظاهرات للمرة الأولى في حياتي،
 تظاهرها ضد حلف بغداد. وتظاهرها أهل القدس ونابلس وبأقي المدن.
 حزنا خير استشهاد الطالبة رجاء أبوعماشة في تلك المظاهرات
 ونحن نرتدي الشورت. كنت أعرف أن «منيف» يخبئ المنشورات

السرية في حذائه لينقلها من مكان إلى مكان دون أن يشك فيه أحد لأنه طفل. وكنا نتابع أخبار القبض على ابن عمنا بشير ونزور جارتنا في عمارة اللفتاوى "أم بشير" لنواسيها ونسأل عن أخباره. تظاهرنّا من أجل طرد جلوب باشا وتعريب الجيش الأردني، وورقنا طرباً عندما تم ذلك بالفعل نتيجة لتطورات سياسية لاحقة تابعنا صراعات الأحزاب: الشيوعي، والبعث، و«الإخوان المسلمون» على قدر أفهامنا كمراهقين. تابعنا الانتخابات التي جاءت بحكومة سليمان النابلسي. تلصصنا الاستماع إلى خطب جمال عبدالناصر من صوت العرب لأن الاستماع إلى صوت العرب، كان يعرض الشخص للشبهة وربما المساءلة. في رام الله طرنا لقرار جمال عبدالناصر تأميم قناة السويس، وتابعنا أخبار بورسعيد وصمودها. في رام الله رقصنا للوحدة بين سوريا ومصر وإعلان الجمهورية العربية المتحدة. وفيها بكينا يوم إعلان الانفصال، فيها دغدغتنا أحلام القوة بصواريخ القاهرة والظافر، وفيها سمعنا لأول مرة بالقرارات «الاشتراكية» الصادرة في مصر وأصبحنا، نحن طلاب المدارس الصغار، نتساءل عما يمكن أن يعنيه ذلك المصطلح.

....

....

في تلك الأجواء التاريخية والحماسية عاش «مروان» شبابه ونضاله، وسط عائلة مترامية التواريخ والأطراف، فبالإضافة إلى «مروان» يوجد «مريد» و«مصطفى» و«حافظ»... «البرغوثي»

و«البرغوثي» الأول هو الشاعر الشهير والثاني ناشط سياسي وممدني، والآخر صديقي منذ سنوات وهو كاتب ورئيس تحرير صحيفة «الحياة الجديدة» التي تصدر في رام الله، سألته يوماً عن درجة القربى بينهم جميعاً قال إن الأقرب نسباً له «مريد»، وأن الصلة بين الجميع هي في النسب للعائلة فقط ولا توجد قرابات مباشرة بين مشاهير «البرغوثي» إلا فيما ندر.

تحركت حياة «مروان البرغوثي» منذ بدايتها سريعاً، كأنها تشبه أفكاره التي تصل سريعاً إلى هدفها، فقد تزامنت إنجازاته التعليمية التي انتهت بالمجستير واجادة الإنجليزية والعبرية مع كفاح تنظيمي بارز داخل كوادر حركة فتح، فعند بداية الانتفاضة الأولى تم إبعاده إلى جنوب لبنان بسبب أنشطته البارزة ضد الاحتلال الإسرائيلي، وعاد إلى رام الله إثر اتفاق «أوسلو» مع العلم أنه أبدى انتقاداً واضحاً لأوسلو.

ورغم أن «عرفات» لم يضعه على قائمة «فتح» إلا أنه نجح كمرشح مستقل في عضوية أول مجلس تشريعي فلسطيني منتخب عن دائرة «رام الله». وكان معروفاً بمعارضته الشديدة للسلطة الفلسطينية خاصة فيما يتعلق بقضايا الحريات والديمقراطية، وقد أوضح في مقابلة صحفية موقفه الأحدث بهذا الخصوص قائلاً: «أعتقد أنه بعد انطلاق هذه الانتفاضة المجيدة - يقصد الانتفاضة الثانية - يجب إعادة النظر في جملة من السلوكيات السياسية والتفاوضية والأمنية والإدارية والمالية في السلطة الفلسطينية بما يحقق تعزيز الجبهة

الداخلية الفلسطينية، ويجب إعادة تشكيل السلطة من جديد بما يكفل حالة من القوة وتعزيز الموقف الوطنى»،
من المثير أن آراء «البرغوثى» كانت هى مطالب أمريكا من السلطة الفلسطينية بعد ذلك بشهور «!»،

نعود إلى التذكير بأن آراء «مروان» كثيراً ما دفعته إلى الإصطدام بالسلطة بداية باستبعاد «عرفات» له من قائمة المرشحين للمجلس الوطنى، وإلى حماس منظمة «حماس» للأخذ بثأر القبض الإسرائيلى عليه ربما بأكثر من حماس السلطة الفلسطينية؛ وليس ذلك بالأمر المستغرب، لأن «مروان البرغوثى» يحمل .. ليس كثيراً من «التناقضات».. ولكن «القدرات»، ومنها دوره البارز فى تخفيف الإحتقان بين جميع الفصائل الفلسطينية - خاصة الإسلامية - وبين السلطة الفلسطينية وأجهزتها الأمنية، وربما جاء ذلك على خلفية علاقته الوطيدة بـ«جبريل الرجوب» رجل الأمن الفلسطينى الأول - وقتها ، لكن المؤكد أن دوره جاء بسبب علاقات الاحترام التى يحظى بها داخل التيار الإسلامى الفلسطينى، حيث إعتبر أن اعتقال الامن الفلسطينى لناشطين فلسطينيين أياً كان انتمائهم الفكرى والسياسى إساءة إلى نضال الشعب الفلسطينى، وكثيراً ما توسط للإفراج عن قادة لتلك التيارات الذين اعتقلتهم السلطة.

وغير بعيد عن تلك القدرات، العلاقات القوية التى يتمتع بها «البرغوثى» مع ممثلين لجميع تيارات اليسار الإسرائيلى المساند للسلام، لكنها علاقات تتوارى وتظهر - وإن كان لا يمكن تجاهلها -

بحسب تفجر حمائم الدم التي تسيل من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار فوق الأراضي المحتلة.

لكن الأوضح في نهاية الأمر أن «مروان» كانت لديه أهداف محددة «عودة الأرض وأهلها» ووسائل واضحة متغيرة، فضلاً عن قنوات تزداد ثباتاً مع الأيام - خاصة أيام الانتفاضة - ومنها ما يلي:

- الدور الأمريكي غير نزيه ولا يمكن الاطمئنان له، وإن كان لابد من راع لعملية السلام فليس سوى الحجر / «الانتفاضة».

- عرفات لا بديل له ولا يجروء أحد على أن يقول غير ذلك في ظل الوضع الراهن. (وإن كان هذا الأمر لم يمنع «البرغوثي» من إبداء آراء منتقدة لأداء السلطة التي يتزعمها عرفات).

- إن العمل المسلح واقع فرضه الاحتلال لكنه ليس الوسيلة الوحيدة للحصول على الحقوق الفلسطينية، فالعمل السياسي وارد ومهم، إذا تم احترامه من الجانب الإسرائيلي.

بتلك المفاهيم الرئيسية التي أمكنني استنباطها من عشرات المداخلات والحوارات الخاصة بـ «البرغوثي» دخل شلال الانتفاضة الثانية، وإن كان «البرغوثي» مجرد فرد مشارك عبر «فتح» في الانتفاضة الأولى، إلا أنه أثر أن يصبح محركاً رئيسياً في الانتفاضة الثانية، وفي إطارها أعاد النظر في بعض آرائه المرحلية وفقاً للواقع البغيض الذي فرضه الاحتلال، فبعد أن كان لا يؤيد على الإطلاق عمليات قتل المدنيين الإسرائيليين، أعلن عن مساندته لكل العمليات الاستشهادية، مؤكداً أن الانتفاضة لن تتوقف إلا

بخروج جميع المستوطنين وزوال الاحتلال، مشيراً إلى أن العمليات
 الاستشهادية رد فعل طبيعي ومشروع على جرائم الاحتلال.
 لكن الواضح أن الغياب الفعلي لحركة «فتح» عن الانتفاضة الثانية
 وبداياتها هو ما شحذ خيال «البرغوثي»، فاهتدى إلى فكر جديد
 يطيل به عمره وعمر نضاله، إذ رأى أن حركتي حماس والجهاد
 الإسلاميتين نشطتان في جميع مجالات المقاومة الشعبية والعمليات
 الاستشهادية، كما قامت الجبهة الشعبية بإعادة تشكيل وتجميع
 جناحها العسكري، وعاد رجالها مرة أخرى إلى ميدان المقاومة،
 وعلى الفور قام «البرغوثي» بإعادة تنظيم صفوف زملاء ورفقاء
 الانتفاضة الأولى، وخلال شهرين فقط من عمر الانتفاضة الثانية
 كان قد انتهى من تشكيل تنظيم «كتائب شهداء الأقصى»، وشكلت
 عملية تصفية الإرهابي الإسرائيلي البارز «بينامين مائير كاهانا»
 في ٣١ ديسمبر ٢٠٠٠ تدشينا وعلامة بارزة دفعت بكتائب الأقصى
 إلى بؤرة الاهتمام الإعلامي العالمي، وبدا واضحاً أن تلك الكتائب
 تركز في عملياتها على اصطياد جنود الاحتلال ومستوطنيه، ويمكنك
 الربط دون عناء بين أهداف كتائب الأقصى وبين شخصية «مروان
 البرغوثي» إذا ما تابعت تطور عملياتها، إذ تلاحظ أنها ليست نمطية
 ولا تتوقف عند آلية جامدة، لأن تلك الكتائب تطورت بتطور سياسة
 الإذلال والقهر التي مارسها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني،
 حيث انتقلت الكتائب إلى أسلوب مغاير لبدايتها واستراتيجيتها في
 المقاومة، فاقبست بصورة أو بأخرى أسلوب العمليات الاستشهادية

لحركتي «الجهاد» و«حماس»، كما أنها تراجعت عن الالتزام التاريخي لحركة «فتح» بعدم شن هجمات داخل الأراضي التي احتلت عام ١٩٤٨، وشتت الكتائب بالفعل عدداً من الهجمات داخل العمق الإسرائيلي.

وإن كان «البرغوثي» ينفي أي صلة تنظيمية له بكتائب شهداء الأقصى - فهذا طبيعي من رجل سياسة لا ينسبه التصفيق والخطب وشعاراتها التزامه وحدود دوره - إلا أنه يقول: «إن رجال تلك الكتائب ليسوا تشكيلاً عسكرياً تقليدياً، بل هم مجموعة من المقاتلين الفلسطينيين استطاعوا تكوين مجموعة من الخلايا السرية ذات الفاعلية القوية.. وهم جيل جديد من المقاتلين الفلسطينيين استطاع بالرغم من الموارد والإمكانيات المحدودة جداً أن يكون فعالاً بشكل لافت، وهو ما يؤكد أن المقاومة المسلحة قد وصلت لنقطة اللاعودة بحيث لم يعد ممكناً اقتلاعها أو اجتثاثها».

.. ثم تطورت صورة علاقة «البرغوثي» بكتائب شهداء الأقصى مع وصول العدوان الإسرائيلي إلى أقصى درجات إذلاله للسلطة والشعب الفلسطيني بحصار عرقات في «رام الله» - عام ٢٠٠٢ - ودفن مئات الجثث في مذبح ومقبرة «جنين»، فأصدرت كتائب شهداء الأقصى بياناً أشارت فيه بصورة غير مباشرة إلى قيادة «مروان البرغوثي» لها، قال البيان: «إن الأشهر الأخيرة وخاصة الأيام القليلة الماضية أثبتت أن شرفاء الشعب الفلسطيني وكتائب شهداء الأقصى بقيادة المقاتل مروان البرغوثي أصبحت تقف وحدها تقريباً في مواجهة العدو».

وإن كان البيان يشير صراحة إلى قيادة «البرغوثي» لكتائب شهداء الأقصى إلا أنه لم يفصح عن سبب «الوحدة» التي يشعر بها أبطال الكتائب والحديث عن وقوفهم وحدهم في مواجهة العدو، وإلا فأين كتائب «القسام» والجهاد الإسلامي؟! والواضح أن «شهداء الأقصى» كانوا يقصدون (الوحدة) التي عاشوها داخل حركة «فتح» وسلطتها (١) .

وبذكاء شديد ألمح البيان السابق إلى: «أن الشهامة والإقدام اللذين يتحلى بهما «البرغوثي» هما من نبع «أبو عمار» واعتزاز بصورة القائد التي يطمح إليها كل شبل على أرض فلسطين».

والحقيقة أن ما أبداه «ياسر عرفات» من زعامة درامية خلال اعتقاله في «رام الله» جعلني أصدق - لأول مرة - العبارة التي وردت في بيان كتائب شهداء الأقصى من أن هذا الشبل «مروان» من ذاك الأسد «أبوعمار»، فقبل اعتقال عرفات في «رام الله» كان الشبه يتباعد بين «الشبل» و«الأسد»، لكن يبدو أن تلك التجربة صهرت الاثنين فصارا مشروع أسد واحد وإن كان ليس وحيداً، أو «أسداً» طوال الوقت!

بالعربية أصبحت الأحاديث عن خلافة «عرفات» تشبه تبادل التعازي والتهاني في الأفراح والمآتم، نفس الكلام والسلام والتمثيل، «فعرفات» إذا سألته عن خليفته يحيلك إلى ميثاق منظمة التحرير والمجلس الوطني، رغم أن خصومه المعنويين وغيرهم يحفظون قولاً ماثوراً يقول «إن عرفات لو عرف أنك ستخلفه ولو بعد ٥٠ عاماً سيكرهك الآن».

لكن «بالعبرية» جاء اعتقال «البرغوثي» أمراً مثيراً للاهتمام والجدل «داخل الأجهزة الأمنية الإسرائيلية» مما يشير إلى ثقله السياسي وليس الحركي فحسب.

حيث طالب بعض قادة «الشاباك» -جهاز الأمن الاسرائيلي- ببناء شراكة مع «القادة الميدانيين لفتح وعلى رأسهم البرغوثي. وعدم محاولة هدم ما لا يمكن هدمه». وحذر هؤلاء القادة من أنه «إذا استمر تدهور الأوضاع، فلن نجد أمامنا قيادة عملية من نوعية البرغوثي، وإنما الشبان المتطرفون الذين يجيدون فقط، حمل السلاح وكراهية حقيقة وجود إسرائيل كدولة يمس جيشها بالشعب الفلسطيني ويذله».

ويبدو أن أسهم الجناح الإسرائيلي المؤيد لفتح حوار مع «البرغوثي» تتراجع مع كل عملية استشهادية جديدة في فلسطين ، وبخاصة تلك التي تقف وراءها «كتائب شهداء الأقصى». بدا ذلك التراجع جلياً عبر عملية الاعتقال التي تعرض لها البرغوثي في يوم الاثنين «٢٠٠٢/٤/١٥» أثناء وجوده في منزل القيادي الفتحاوي «زياد أبوعين» في حي الطيرة برام الله، وقد اتهمت فدوى البرغوثي - زوجة مروان - عملاء الاحتلال بالوشاية بزواجها وتساءلت عن: «من دفعه إلى الحضور إلى رام الله، حيث إنه كان حريصاً على عدم الاتصال ولو بالهاتف».

اعترفت سلطات الاحتلال بدور جواسيسها من الفلسطينيين في الإيقاع بالبرغوثي قائلة «إن قوات إسرائيلية خاصة تعززها

الدبابات حاصرت المنزل بعد تلقيها معلومات استخباراتية عن مكان وجوده، وتم نشر ثلاثة أطواق محكمة حول المنزل، وأُغلق الحي كله وفرض حظر للتجول، وتم اعتقال البرغوثي وابن عمه أحمد البرغوثي إضافة إلى صاحب المنزل زياد أبوعين، وقد استسلم البرغوثي دون مقاومة وكان شرطه الوحيد هو عدم المساس بأسرة أبوعين.

والمنير أن «البرغوثي» كان قد اعترف في حوار صحفي قبل شهور من اعتقاله على أيدي الإسرائيليين بوجود تقصير لدى الأجهزة الأمنية الفلسطينية في ملاحقة العملاء والمتعاونين مع إسرائيل وقال: «مع الأسف لم تكن هناك متابعة لموضوع العملاء منذ إقامة السلطة الوطنية وبعد اندلاع الانتفاضة، كنا أمام خيارين، الأول: إما أن نتعامل مع الانتفاضة مباشرة ونواصل مواجهة العملاء، والثاني: أن نترك أمرهم للأجهزة الأمنية»، وبالفعل ترك «البرغوثي» الأمر للأجهزة الأمنية ليصل في نهايته لقبض الإسرائيليين عليه.

له البرغوثي «أربعة أبناء أكبرهم «القسام» الذي هدد بالقيام بعملية استشهادية في حال المساس بوالده (جرى اعتقاله في ديسمبر ٢٠٠٣)، ولا أعرف على وجه اليقين كيف يفكر «القسام مروان البرغوثي». لكن المؤكد أن الأجيال الجديدة في الوطن العربي لم تعد تتحرك من - أو في - فراغ، خاصة داخل الأراضي المحتلة، فـ«مروان البرغوثي» لم تكسر نكسة ١٩٦٧ وعيه ولا قلبه بصورة مباشرة مثل أجيال كثيرة من مناضلي ومثقفي النكسة الذين عاشوها جسداً لجسد، مروان من جيل آخر، تألم وتعلم وانتظر

الوقت المناسب لبتكلم، انتظر الانتفاضة، ليست الأولى ولكن الثانية ليبدأ نضاله الأكبر ، إنه من جيل يعرف كيف يقطع شهوة الكلام فى أى وقت - يريد أو - يراه مناسباً للصمت، جيل جديد من المناضلين الذين مارسوا كل شىء وضمنت لهم التجربة ألا يصابوا بفيروس ادعاء البطولات، لأن مجرد تنفسهم وسط الجماهير الغاضبة أو داخل المعتقل.. هو بحد ذاته بطولة، وليس من قبيل المصادفة أن يجيد «البرغوثى» الإنجليزية والعبرية ويطالع الأدب خاصة الرواية المصرية ويسجن ويتم اعتقاله ويسافر ويعود ويفاوض وينتفض، إنها أقدار وليست مصادفات تلك التى تصنع جيلاً جديداً يعبر مروان عن فكره قائلا: «إن المعركة طويلة جداً لأن الهدف ليس سهلاً فنحن نتحدث عن قضايا مقدسة، نتحدث عن إنهاء احتلال للأراضى الفلسطينية والسيادة على القدس وعن عودة اللاجئين».. هكذا يفكر «البرغوثى» .. بهدوء وطول عمر ونَفَس. والأمر متروك لك لتعرف.. هل أراد «عرفات» أن يجدد تاريخه بالصبر واللجوء للعناد بعد أن فشل التسامح فى إعادة اللاجئين.. هل أراد اللحاق بجيل جديد «سيقطع نفس» السلام والمفاوضات بالمراوغة والمفاوضة والمقاومة؟.. من الذى دفع الآخر للاتصاق بالناس.. بالانتفاضة.. بأعراس الشهداء التى لم تكن تخلق أبداً من «البرغوثى».. الواضح أن «البرغوثى» ؟.. كان يقدر ما يدفعهم للحماس يحتمى بهم، الكفاءة فى العطاء والأخذ تضمن استمرار كل العلاقات والأهداف: الحب والخلود والثورة.

وربما كانت السياقات الجديدة التى دخلتها المؤسسة الفلسطينية، قدراً منتظراً لأفكار وقيادات جديدة.. فقصّة «البرغوثى» بكل «الدراماتيكية» البادية فيها، تعتبر دلالة تدعو للتأمل، ويعيدُ عن خيالات التأمّر التى تنمو بشيق وحيوية داخل عقول الكسالى فقط، فإن «مروان البرغوثى» يبدو أنه يعرف جيداً الفرق ما بين «السلام» و«الاستسلام»، لأن العبرية التى يتقنها ومعسكر اليسار الإسرائيلى الذى يعرف أعضائه عن قرب لم يمنعه من العودة للكفاح المسلح والمقاومة، عندما تأكد بإدراكه من أن السلام الإسرائيلى مجرد مخطط متقن للإستسلام، وأتصور أن المستقبل - إن كان سيمر بوطننا العربى - سيكون لتلك الأفكار والعقول الجادة التى لم تمت قلوبها بعد، عقول تعرف الفروق بين الأشياء، لا تختلط فيها المفاهيم ولا تصاب بتصلب الشرايين، لا تملك وحدها الحقيقة والصواب ولا تدعى ذلك، تملك هدفاً مقدساً ووسائل بشرية، تعرف قدرها وقدرتها، وإذا اختارت الاستشهاد فلأنه وسيلة وليس غاية.

طبيعى ألا يسلم «البرغوثى» من الانتقاد، لأنه ليس سهلاً أن -تصنع شيئاً أو- تملك فكراً وعقلاً وقلباً ذا أبعاد متعددة ويتركك الناس والتاريخ تمضى فى هدوء لحال سبيلك، لأن الجميع أصبحوا باهتين، لا تميزهم لا الاسماء ولا الأفكار - ولا حتى المشاعر... متشابهين فى زمان متشابه ومشبوه نمضى، فمن حقنا ومن حق «مروان البرغوثى» أن نعايره بأبعاده ومهاراته المتعددة، نحن أصبحنا كائنات ذات بعد واحد، أصبحنا نشبه كثيراً حركة وصورة

الحيوانات الأسطورية، انقرضنا ونحن فوق الأرض، حياتنا .. أيامنا وكلامنا قصائد ركيكة لراثنا، ان نحيا حتى وإن حيينا طوال العمر، نموت ونحن أحياء وستبقى كتائب شهداء الأقصى والقسام حتى وإن غابوا وغاب «البرغوثي» اليوم، فالمفاوض قد ينتهي دوره، لكن المنتفض سيذكره الناس، و«مروان» يتمتع بالبعدين وأكثر، في شخصه وسيرته، وأراه عزاء لكل أهل برج «الجوزاء» الذين يقال إنهم متعبون ومعذبون لأنفسهم وللآخرين بسبب شخصياتهم المتعددة... كما أنني مدين باعتذار لـ«مروان» الذي لم أعرفه عن قرب إلا عندما هممت بالكتابة عنه، فقد كنت أنتقد وجهه المرهق وحلقه الجاف دائماً وهو يلهث من فضائية إلى أخرى، لم أعرف إجابة لسؤالي: أين يجد الوقت للعمل؟ إلا عندما طالعت جانباً من سيرته الذاتية.. قامته القصيرة وخطواته المتسارعة، كانتا تشيران دوماً إلى قلق يلازمني ويلزمه كلما تأملت شاربه وشعره المهملين، لم أصدق لحظة أنه توتر ناتج عن كونه المطلوب الرئيسي للإسرائيليين في الانتفاضة الثانية، حتى جاءت ليلة القبض عليه، طالعت سيرة حياته، فوجدت أن التوتر يليق به لأنه.. يحمل عقلاً مفاوضاً وقلباً منتفضاً!

4 الفصل الرابع



ايزاقيتش

، جلست لتحويلات،

واستجابت الوجود، لكنها ليست صادقة، لا تقول لك بصديق

.. كالأسماء.. أنها تبدلت، وتغيرت،

على

مقاعدھا القليلة، كان يلتقى مثقفو الأربعينيات
الحالمون بالعدل، الساعون لتجديد الحياة فى
الوطن، وعليها كان يلتقى مثقفو الستينيات الحالمون
بالحرية، وفيها كتبت قصائد، وتوهجت قصص حب،
ودارت معارك فكرية وأدبية وسياسية..
إنھا مقهى «إيزافيتش» أشهر ملامح ميدان التحرير، التى
تحولت الآن إلى معرض لبيع السيارات.
لسنا دراويش.. وليسوا شيوخا.. لكنهم أعمامنا الذين
هم فى القلب!

كتبت سطورهم أروع ألوان الوعى على جدار الروح،
وكانت أفكارهم نار العقل ونوره.
إنهم الذين صنعوا الأغاني، واللىالى.. أفراحهم وأحزانهم
ومدارسهم كانت المعتقلات والمقاهى، والحانات..
تلك المقاهى التى كانت «زرقاء اليمامة» شبت بـ «الكعكة
الحجرية»، وقدمتها قربانا لـ «عم جمعة»..

لا تخلو
الساحة فى
ذاكرة بلادنا
وأماكنها .
من
بالطبع .
الطبقية،
حيث كانت
«إيزافيتش»
درجة فى
سلم نهايته
«لاباس»،
و«ريش»

إنها «إيزافيتش» صفحة من تاريخ مأساته، إن من صنعوه مازال معظمهم يعيش بيننا، فلم نقدرهم، ولم نصبح مثلهم، فلم يعرفونا، وتاه نجل جديد للتاريخ بين الجمل الاعتراضية التي يشبهها جيلنا! مقهى، كانت بيتا ومأوى ونهرا اغتسلت على عتباته عقول وأفكار وصراعات بكل المقاسات.

التفاصيل كثيرة، والأسماء تحтар من منها تقف عنده وتتكئ عليه فى أيامنا العرجاء.. لذا قررت أن أترك الأسماء تتوهج عبر السياق.. أما فى شارع تاريخ هذا المقهى العتيد فلم أقابل أحدا وأسأله، إلا ويدلنى على الكاتب (الراحل) سيد خميس، وكأنه المتن وكل الحكايات الباقية.. إحالات!

كان عائدا لتهو من الكويت، بدأنا الليلة من النادى اليونانى، وانتهينا بالجريون من العاشرة مساء حتى الخامسة صباحا، والتي قبلها بنصف ساعة تألق فجأة، وتذكر «غالبا هلسا» فى «إيزافيتش» التي قال عنها: إنها فى الأصل اسم لعائلة يوغوسلافية من الصرب، وكانوا يسمونهم اليوغوسلاف البيض، ميولهم اشتراكية جاوا إلى مصر، وافتتحوا بداية محل فول وطعمية، وامتد ليصبح المقهى الشهير الذى كان يحتل مكانه على ناصية سليمان باشا، وحتى نهاية مبنى عمر أفندى، مطلا على ميدان التحرير.

سيد خميس، وسيد حجاب، وإبراهيم فتحى، توقفوا جميعا عند تلك المسألة اليوغوسلافية البيضاء، وتوحدت رواياتهم حول «إيزافيتش» الكبير، الذى كان كلما اخفق فجأة يعرف المثقفون أن «تيتو» سوف

يزور مصر.. حيث كانت السلطات المصرية تتحفظ عليه خوفاً على حياة «تيتو» الذي كان يزور مصر كثيراً في تلك الفترة. المقهى كان يطل على صفحة وفترة مهمة من تاريخ مصر، ويتذكر سيد خميس أن مقر الطليعة الوفدية كان قريباً من «إيزافيتش» فهم يسار الوفد، وشبابه، ويربط بين اختيار فؤاد سراج الدين للمقر، وبين المقهى!

أما أصحاب المقهى فكانا اثنين أشقاء يسكنان جاردن سيتي، الأكبر هو الأهم، والأكثر تواجداً، وتودداً للفنانين والمثقفين الذين تردوا عبر أجيال على المقهى.

وعند تلك النقطة.. «الأصول».. كان لابد من الرجوع إلى المرجع الجميل الكاتب محمد عودة، الذي أكد أن أصحاب المقهى كانوا ثلاثة أشقاء، وليسوا اثنين، وعاد بنا إلى الأربعينيات، حيث كان اسمه ميدان الإسماعيلية «قبل التحرير»، وتذكر أن أكثر أيام أناقة المقهى كانت تلك الفترة الأربعينية، حيث كانت «إيزافيتش» بأسعارها المناسبة.. مناسبة لجيوب المثقفين الفقيرة، فضلاً عن إمكانية «الشكك»، حيث رفض محمد عودة مصطلح «النوتة» حين استخدمته وقال: ما كنتش فيه نوتة أصلاً.. وقال: إن المقهى في تلك الفترة كانت شاهداً على موت نظام الملك فاروق، حيث مات فاروق -

سياسياً حسب رؤية «عودة» - يوم ١١ فبراير عام ١٩٤٦م، يوم الاحتفال بعيد جلوسه، فقد اندلعت مظاهرات الطلبة ترفع لافتة: أين الغذاء والكساء يا ملك النساء؟! قال: إن فاروق مات في هذا اليوم،

وإن كان قد تم دفنه عقب ٢٣ يوليو ١٩٥٢.. وتذكر ما قاله المؤرخ الفرنسي «جان لاکوتير» بأن الثورة المصرية الحقيقية بدأت فى الأربعينيات، وكانت هناك بداية أخرى عام ١٩٣٦م عندما بدأ أبناء الطبقتين الوسطى والفقيرة، فى دخول الكلية الحربية، فشكّلوا الجناح العسكرى للثورة، وإن كان جناحها المدنى قد بدأ يتشكل أكثر خلال الأربعينيات، وشهدت «إيزافيتش» على رافد مهم جدا أسهم فى بلورة الثورة، وإرهاصاتھا، وكانت مظاهرات ١٩٤٦م مملوءة بالعديد من زبائن «إيزافيتش».. فعلى كراسيها وموائدھا التقت أرواح وأقلام سطرت صفحات جميلة فى كتاب الوطن.

الإطالة المتسعة على الميدان الفسيح كانت أوضح ما فيه، خاصة خلال الأربعينيات، حيث بداية تسلل المثقفين - اليساريين بالطبع - فالمقهى كان أنيقا، زبائنه يدعون للفرجة على رقيهم، كما يتذكر الأستاذ عودة، وبخاصة ليلا عقب حفلات السينما، حيث كانت بعض الأسر الراقية تجرب طعم الأكلات الشعبية - فول وطعمية وخلافه - على «إيزافيتش» وبخصوص الأكلات والحلويات على هذا المقهى، فقد كان الجميع سعداء بالجمع بين الأكل وشرب الشاي والقهوة فى مكان واحد، لكن لا يتاح لك ذلك إلا بعد وجود علاقة مع عمال المقهى، أو آل «إيزافيتش»، وعندما تكون زبونا يصبح من حقك أن تتمتع بطلب الفول، والطعمية فيأتيان لك من المطعم الصغير الملحق بالمقهى، وأنت تجلس بداخل أناقته.

يتذكر عودة أن اماكن لقاء المثقفين وقتها كانت كثيرة «ريش»، بار

«ستيلا» لكن المرسى فى النهاية - كما يقول - كانت «إيزافيتش»، وكان أصحابه الثلاثة لهم مناقشات حامية، لكنها ودودة مع المثقفين اليساريين، حول الزعيم اليوغسلافى «تيتو»، الذين كانوا - آل «إيزافيتش» - على خلاف سياسى معه، ورغم ذلك كانوا معجبين بمقاومته للألمان ورفضه للهيمنة الروسية، رغم كون «تيتو» شيوعيا.. وهو بالفعل انشق بوضوح عن «استالين» فى تلك الفترة.

أما الأسماء فهى كثيرة تحتر.. كيف تختار؟ فاعذرونا إن نسينا أو أخطأنا.. كان سيد خميس، والأبنودى، وإبراهيم فتحى، وأمل دنقل، ويحيى الطاهر عبد الله، وسيد حجاب.. ومحمود يس، وبهاء طاهر، الذى قال عنه سيد خميس، أنه كان يجلس دائما مهذبا كالعادة، هادئا، خارج المقهى.. يطل على البراح ويسبح فى المدى.. قابلته - بهاء طاهر - منذ أيام قليلة عام ٢٠٠٠ فى مقهى ضيق اسمه «خزان أسوان بالزمالك»، لا يتسع لأكثر من عشرين شخصا، كان وحيدا بمفرده، سمع اسم «إيزافيتش».. تهللت ابتسامته، تذكر، لم يقل أكثر من: انظر كيف أجلس.. كانت يداه فوق ركبتيه، ممسكتين بالجريدة، لا يستطيع أن يستدير فى جلسته، وإلا اصطدم بزبون فى الكرسي الملاصق له.

ومن الأسماء فى «إيزافيتش» محمود المانسترلى - أحد الضباط الأحرار - وكان صديقا لعبد الناصر، وحسب رواية إبراهيم فتحى فإن الخوجة «إيزافيتش» كان شديد الاحترام له، وكان حريصا على تزويد ساندويتش الفول الخاص به بقطرات من زيت الزيتون من زجاجة خاصة توجد بجوار مكتبه.

«عيش السرايا» كان فاكهة المقهى، والوجبة الأشهر بعد الفول والطعمية.. ولا تعرف إن كانت المقهى ملحقا بمحل الفول، أم العكس، المهم أنك كنت تستطيع أن تطلب من هنا أو هناك ما تشاء، وتحاسب دفعة واحدة، أو لا تحاسب، ويروى سيد حجاب أن الجميع كانوا معتادين الاقتراض من جرسونات المقهى، أو يأخذون الطلبات منهم «على ما تفرج».. كان أشهرهم «عم جلال»، «وعم جمعة».. الذى كتب عنه عبد الرحمن الأبنودى واحدة من أول وأجمل قصائده.. «عم جمعة جرسون «قهوة إيزافيتش».. الأسمر.. أبو وش يبش يبش ينش الكلمة الوحشة برة العش.. واحد قهوة للأستاذ سيد.. ويقيد.. يا سلام يا سى عبد الرحمن.. للدنيا لسة جرح صعب محتاج لطبيب».. وكأن عم جمعة جرسون إيزافيتش كان يعرف أنني سأكلم الشاعر عبد الرحمن الأبنودى ليحدثنى عن المقهى الجميل فأجده فعلا محتاج إلى طبيب، بعد تلك السنوات المتعبة، وأنه تركنا «زهقانا» إلى الإسماعيلية.

أعود إلى سيد حجاب.. الذى قال: إن سيد خميس كان ولى أمر اثنين فى «إيزافيتش» هما سيد حجاب، والأبنودى.. وكان التبنى حقيقياً.. يتولى الإنفاق عليهما.. المصروف اليومي، والسجائر.. إلخ..

الأسماء كثيرة جداً، والمراحل أقل.. تلك التى ارتبطت بها «إيزافيتش».. أهمها حركة اعتصام الطلبة عام ١٩٧١م... ويرجعها صلاح عيسى إلى حلقتها الأولى «عام ١٩٦٨» تلك التى كانت تطالب

بمحاكمة المسؤولين عن النكسة أما اعتصام «١٩٧١م» فكان مخاضه مع تولى السادات الحكم، وترديده الدائم أنه سيحسم أمر المعركة مع إسرائيل.. إن سلما أو حربا.. قبل نهاية عام ١٩٧١، وانتهت ١٩٧١ دون أى حسم، وبدأت ظاهرة مجلات الحائط الجامعية التى تطالب بحرب التحرير، وتعترض على حالة الاسترخاء التى كانت بداية سياسته.. وفى يوم ١٤ يناير عام ١٩٧١ ألقى السادات خطابا أرجع فيه سبب تأخر الحسم إلى حرب باكستان التى انشطرت عنها بنجلاديش فى ذلك الوقت!! وأثار ذلك المبرر غير المقنع طلبه الجامعة.. تظاهروا.. حاصروهم الأمن داخل أسوار الجامعة.. تسللوا إلى خارجها.. حول النصب التذكارى الذى كانت تطل عليه «إيزافيتش» وسط ميدان التحرير تجمعوا.. وعلى المقهى كان ينادى عليهم «أمل دنقل»..

أيها الواقفون على حافة المذبحة.. أشبهوا الأسلحة.. سقط الموت.. وانفرط القلب كالمسبحة.. دقت الساعة المتعبة.. رفعت أمه الطيبة.. عينها (دفعته كعوب البنادق فى المركبة!).. «أمل» كان يقصد طلاب الاعتصام الذين تجاوزوا الألفين، كانت نقطة رصدهم وحوارهم «إيزافيتش».. يتذكر سيد خميس أن سيارات فارهة خصوصا المرسيديس، كانت تتوقف وسط «الكعكة الحجرية» أو ميدان التحرير ويفتح أصحابها شنطة السيارة وتخرج صناديق بها مئات الساندويتشات توزع على الطلاب تعاطفا ومودة! ولا تخلو الساحة فى ذاكرة بلادنا وأماكنها - بالطبع - من الطبقية،

حيث كانت «إيزافيتش» درجة في سلم نهايته «لاباس»، و«ريش» فكانت الأقل تواضعا في أسعارها «إن إيزافيتش تشبه المرحلة الزرقاء في حياة بيكاسو، وهى المرحلة الأشد فقرا ماديا فى حياته»..

فترة النضج والازدهار لهذا المقهى كانت من عام ١٩٥٧م، حتى عام ١٩٧٤، تقريبا، شهدت ميلاد كثير من الأدباء، والفنانين، من جيل سابق مثل حسن سليمان، ولويس عوض، الذى أهدى كتابه «بلونولاند» إلى: «الفتيات الضاربات على الآلة الكاتبة، وإلى أكلات السندويشات من «إيزافيتش».

بعد تلك المرحلة تسلم سيد خميس - كما يقول هو - المقهى دون أن يعرف أنه ملتقى لأعضاء الطليعة الوفدية، وحببه فى المكان أنه كان بلا إزعاج، مقهى بدون طاولة، ولا دومينو، أو راديو! وكان ذلك غريبا على كل المقاهى، والإيقاع فيها مضبوط، حيث لم تكن تقدم «بيرة» - مثلا - كما كانت حالة «ريش».

أما عنوان كل الأسماء التى ذكرناها سابقا وغيرها فكان - تقريبا - مقهى «إيزافيتش».. يقول سيد خميس: أذكر أن صلاح جاهين حاول فى فترة ما أن يعيننى فى الأهرام، وحصل نوع من الاعتراض، فطلب من الدكتور عبد القادر حاتم أن أعمل فى مجلات وزارة الثقافة، وخلط الدكتور حاتم بين اسمى واسم سيد عبد العزيز خميس.. الذى تولى «روز اليوسف» فيما بعد.. وقال لجاهين.. يا أخى أنا عينته فى «المساء»، فقال له جاهين: لا.. دا واحد تانى..

وهنا ظل مكتب الدكتور حاتم يسأل عني، ولم تكن هناك وسيلة للاتصال بى سوى تليفون «إيزافيتش»، فساعتها لم يكن هناك لعشرات من المثقفين تليفون ولا عنوان ثابت إلا هذا المقهى.. وأذكر أن الزبائن الطيبين غير المشاغبين دائماً كانوا يجلسون خارج المقهى، مثل: بهاء طاهر، وحسن سليمان.. أما سامى السلامونى، فقد لازمنى فترة هناك، وكان يعمل فى مؤسسة الكهرباء، وفجأة انفعل، وقرر الاستقالة والتفرغ للنقد السينمائى، واتصل بمقر عمله وأبلغهم باستقالته أيضاً من تليفون «إيزافيتش»!!

وبعكس كل ما يعرفه جيلنا، فالفلوس لم تكن قليلة فى فترة ازدهار «إيزافيتش»، كانت كثيرة، والأسعار أرخص حسب روايات سيد خميس إبراهيم فتحى - مثلاً - القهوة بـ ٥ قروش، والبيرة بـ ١٤ قرشا «وفين؟! فى سميراميس.. فما بالك بقروش «إيزافيتش» التى لم تكن تزيد عن الخمسة بأى حال؟!

مقاهى القاهرة بشكل عام تحتاج إلى وقفات، فهى عالم فريد يجمع بين السحر والغموض.. من أين بدأت وإلى متى تمضى؟ لا أحد يعرف على وجه الدقة.. إنها كائن إنسانى خاص جداً.. سجلت جذرائها وأدواتها ومريدوها عالماً متكاملاً يسير من الماضى إلى الحاضر، يمكنك من خلاله أن تعرف معالم الناس والوقت والوطن.. أما التحولات التى دهست الوطن فليس أصدق من المقاهى، وحكايات أهلها دليلاً عليها.. وأعجبتنى تخريجة عم سيد، الواضح أن للمقهى والمثقف علاقة المقهى بالمثقفين.. بالطبقة الوسطى..

فجنزور تلك الطبقة تعود إلى ناس إما تربوا فى أوروبا أو عادوا من بعثات ذهبت إليها، وبالتالي كانوا مرتبطين بالمقهى المطل على الشارع، كما الحال فى أوروبا، أن بذرة الاهتمام بمقهى «الفيشاوى»، نبتت من بين يدى طلبة الأزهر، الذين كانوا مولعين باختراع البن، والقهوة، فكانوا يذهبون إلى هناك فيما بين دروسهم، وبعيدا عن مشايخهم!

كانت البارات والمقاهى «فى الخمسينيات والستينيات، وأوائل السبعينيات الأماكن الأكثر دفئا، وقريبا للمتقنين، ولكل فئة وطبقة مقهاها وعلى طيف «إيزافيتش» تذكرنا حلوانى «لوك»، وكان بجوار «ريش»، قاللوى بأصناف قليلة منها كانت من الأطعمة المفضلة وبأسعار مهاودة فى «إيزافيتش».

كل من تذكروا هذا المقهى تذكروا بالطبع تلك الأيام، والتي من بين عناوينها:

- كان لكل مثقف مشروعه الخاص.

- طبعا كانت هناك خلافات وخناقات، «لكن الحب والاحترام كانا بجد، وكنا نحضن بعض بجد».

- كانت هناك أشياء تستحق أن نتحدث عنها، عكس تلك الأيام التي بلا طعم.

يقصدون أيامنا طبعا..

أعود إلى «الأبنودى».. الذى يحلف عم جمعة «علشان كسوة سيدى عبد رحيم واحد «فورنو»/ واحد «فورنو» يا كامل.. تعرف دول؟

كانوا أسياد الأرض/ كانوا الكلمة/ كانوا الطول والعرض..

ومن بين هؤلاء واحد من كثرة ما سمعت عن ضجيجها تمنيت لو كنت قابله، خصوصا على «إيزافيتش» التي كان أحد نجومها.. يحيى الطاهر عبد الله.. الذى حكى عنه رواد المقهى الذين التقيتهم الكثير، وإن كان ليس كل ما يعرف يقال، لكن ما يمكن أن يقال أن يحيى فى «إيزافيتش» كان يعتقد أن العالم منقسم.. أو يجب أن ينقسم إلى قسمين.. قسم يؤمن بعبقريّة يحيى، وقسم آخر يؤمن بعبقريّة يوسف إدريس.. ويوسف إدريس بالطبع هو الذى قدم «يحيى» بشكل طيب على صفحات مجلة «الكاتب» فكانت تلك بداية تألقه..

ومن قلق إلى قلق تنتقل عيون الحكايات فى «إيزافيتش» إلى الكاتب والروائى، والباحث الأردنى «غالب هلسا».. وأول مرّة شاهده فيها سيد خميس كانت على «إيزافيتش».. جاء إليه ومعه الشاعر والصحفى السودانى «جبلّى عبد الرحمن»، وكان الأخير أيامها مسئول القسم الأدبى بجريدة «المساء».. يشبه الزنوج بأسنان فاقعة البياض.. بارزة.. متعب المظهر الخارجى دائما.. قال سيد خميس - تعالى أعرفك على كاتب «كويس»، فوجئت - يقول سيد - بواحد شكله «خواجاتى».. فى يده الأعمال الكاملة لبرتراندراسل.. شعره ناعم.. وأى واحد بهذه الهيئة على طول يبقى برجوازى.. وكان هذا البرجوازى هو غالب هلسا.. كاتب ومترجم وقصاص ويعرف كثيرا من الجوانب الخافية فى الأدب والفكر العربى.. وله منهجه الفلسفى الخاص والواضح.. عرفته على «إيزافيتش» ومازلت ضد ما كان

سائدا عن أنه سكير، فقد كان البعض يقصد من إشاعة ذلك التغطية على قدراته الأخرى، وكانت له ندوته الأسبوعية في منزله من حضورها سليمان فياض، وأبو المعاطى أبو النجا، وفاروق شوشة، ورجاء النقاش.. كنت أحب صحبته، وأشعر بعقدته، فقد كان يعتبر نفسه مصريا أكثر منه أردنيا.. وكل الأعمال التي كتبها خارج مصر كانت عن مصر، التي عاش بها ٢٥ عاما.. كان زميلا للملك حسين في كلية فيكتوريا.. من الأردن ثم طرده إلى العراق، ومنها إلى القاهرة، فالعراق، ثم سوريا، عاش اعزب، ودامه الاكتئاب في آخر أيامه، ومات وحيدا في الغربية، ودفن في دمشق..

وعلى جدار «إيزافيتش» تجد كل ألوان طيف اليسار.. وطليلة الوفد.. ويتذكر إبراهيم فتحي أن كل التنظيمات السياسية تم حلها في شهر مايو عام ١٩٦٥م، وتداخلت ساعاتها الحدود بين الحركتين «الماركسية والناصرية»، فكل اليساريين في تلك الفترة كانوا - تقريبا - يؤيدون عبد الناصر، ويضيف هو إلى الأسماء التي سبق ذكرها «محمد جاد»، زبونا على «إيزافيتش»، وعليها أيضا كانت في تلك الفترة أحاديث حول غياب الديمقراطية، ودخل إبراهيم فتحي المعتقل في شهر سبتمبر عام ١٩٦٥م، وبعدها بـ ١٢ شهراً حل ضيوفا عليه: سيد خميس،.. والأبنودي، وسيد حجاب، ومحمد العزبي.. وآخرون.. وكلهم كانوا إما من رواد «إيزافيتش» أو «ريش».. أما المرفهين من مثقفي تلك الفترة فكانوا من زبائن «لاباس» ومنهم - مثلا - الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي، وبعض اللاجئين

العرب.. وكانت «إيزافيتش» فى منتصف طريق الأسعار بين «لاباس» و«ريش»، التى تم إرغامها على أن تغلق أبوابها يوم الجمعة فى فترة القلق اليسارى الحكومى، التى توقف أمامها إبراهيم فتحى.

ومادام هناك مثقفون فلا بد أن تنتظر المخبين، وكانت «إيزافيتش» من أجمل شاشات عرض سينما المخبين.. يتذكر إبراهيم فتحى أن زبائن المقهى من أصحاب السوابق السياسية كانوا يتابعون بكل ود وتندر تغيير ورديات المخبين أمام «إيزافيتش»، وكان عمل المخبين المراقبين لأهل «إيزافيتش» سهلا، لأنها كانت مكان «تجمع دائم»، وكتابة التقارير عنهم، كانت سهلة ولا تحتاج إلى مجهود.

وإذا حاولت أن تستشف من كل الذكريات السابقة صورة حقيقية للمكان فليس أمامك سوى عنوان «الكفاف السعيد» مناسبا لتلك الأيام ولـ «إيزافيتش»، فهذا المقهى لم يكن غنيا، وليس فقيرا، لكنه سعيد.. يطير فرحا وزخما.. لكن شىء ما كان جوهريا وأساسيا عاشته «إيزافيتش» وأهلها، لقى مصرعه وحتى جثته لم نعثر عليها فى أيامنا الباهتة الأسنة!

ليلة اطلاعى على ما خفى عنى من تاريخ «ريش» فعلت كما كان يفعل الأوائل، حين كانوا ينتقلون من «ريش» إلى «إيزافيتش»... إلى «على بابا»، إلى «استرا».. تنقل دائم فى قطار الليل والنهار، والساعات المتعبة..

تنقلت ومعى سيد خميس، وفى يده «الموبايل» من النادى اليونانى

إلى الجريون، ونسينا الأوديون، شاهدنا العشرات، من مثقفى وسط القاهرة.. منهم بعض الأسماء التى وردت فى حكاية «إيزافيتش»، كانت أسماؤهم فى الحكايات أجمل وأصدق وأوقع.. مياه كثيرة جرت فى النهر، وتحت الجسر، أشياء تاهت وتعطلت لغة الكلام.. كشفت أحاديث «إيزافيتش» لى كثيرا مما استعصى.. كيف كان مكان واحد يحتمل كل هذا الضجيج وتلك القامات كلها.. أسماء مرعبة فى وعيها، وتأثيرها، كيف يستوعبها مكان واحد؟.. اما الآن فتضيق بهم كل الأماكن.. فهل السبب فى الأماكن أُم فى أفرادها؟!

بقى كثير من أصحاب تلك الأسماء حتى الآن.. خف البريق بالتاكيد.. وأصبحت الأسماء باهتة، والأحاديث ضيقة وباهتة.. ورغم كل ذلك «البَهْتَان» لم تعد الأماكن، رغم أنها كثيرة، تتسع لأحد.. كان أهل «إيزافيتش» ينتقلون منه إلى أشقائه من الأماكن ترفا، أما أهل الجريون وجيله فينتقلون منه إلى غيره.. هربا!!

كثيرون ممن تحدثوا معى عن أيام «إيزافيتش» صمتوا عن كثير من الأحداث والأحاديث.. وإن ذكروها لى إلا أنهم طلبوا عدم النشر، احتراما للراجلين، ولإبداعهم.. حتى الموتى يخشونهم، حبا وتقديرا، رغم الغياب، اما الآن ورغم الحضور يمكنك أن تلتفت فى «الجريون» فتجد جثتك يتم تشريحها علانية على الطاولة، التى تليك لا رغبة فى أكل جثث الموتى، ولا جوعا، ولكن فراغاً، وهذرا للا مكانية!

كل الخناقات التى دارت عبر طاولات «إيزافيتش» لا يحب أهلها الكبار أن يتحدثوا عنها الآن.. رغم أن كثيرا منها معروف، عكس

خناقات مقاهي المثقفين الآن، التي تنتقل سريعا من مكان إلى مكان، ليس بفضل الموبايل، ولا الإنترنت، ولكن لأن السقف أصبح من «قش» يلتصق بالربوس وأن القامات أصبحت قصيرة، ومجرد عود كبريت كفيل بإشعاله.

تعجبنى دائما رواية بديعة عنوانها «آلة الزمن» للإنجليزى هـ. ج ويلز.. يدور موضوعها حول الحركة السابعة.. فالحركات الأصلية ست: فوق وتحت ويمين ويسار، وأمام وخلف، ولكن هناك حركة سابعة هى حركة الزمن فى مكان ما، فربما كان المكان نفسه من ألف سنة معبدا، ثم أصبح مسجدا.. «معبد الأقصر».. مثلا - يضم مسجد أبو الحجاج «أشياء كثيرة يدور فيها وحولها الزمن، تلك الحركة أصبحت الآن تأملها فوق المثقفين فى أماكنهم ومقاهيهم وحاناتهم ولا أرى لماذا أصبحت أقدر الأماكن / المباني أكثر؟ لأن حركة الزمن واتجاهاته واضحة فيها أكثر.. وهى صادقة معه أكثر.. حيث «إيزافيتش» اليسارى الحاد، الشاعر، تحول إلى شركة سياحية «برجوازية طبعا» ولا يستطيع الحجر أن يدارى أثر الزمن فيه، ولا يتوارى، ولا يتورع عن البوح بالصدق، أما وجوه آل «إيزافيتش» وأشقائه فقد اختفى منها الكثير وبقي منها القليل، لكن لم تعد الوجوه فى صدق الأسمنت، حدثت تحولات واستجابات الوجوه، لكنها ليست صادقة، لا تقول لك بصدق الأسمنت أنها تبدلت، وتغيرت، لا تقول لك شيئا صادقا على الإطلاق، فهل للصدق علاقة بالتجربة.. نعلم أن إيزافيتش اختفت، فهل اختفت معها تجربتها؟ ولماذا يتوالد المخبرون

ولا تتوالد التجارب؟ لماذا يشبه المخبرون بعضهم بعضاً، رغم حلول
اللاسلكى واتحاده بالمويابل بدلاً من البالطو والجرنال؟
وعلى الجانب الآخر، لماذا لا يشبه الجريون إيزافيتش؟
أعود إلى التجربة التى يغيب بغيابها كل طعم، ولون، ومعنى..
وأسأل عنها..
هل حقاً ماتت أم أنها حية، وتبحث عن تلك الـ «يد» التى كتب
عنها أمل دنقل من «إيزافيتش»؟ «أدخلته «يد» الله فى
التجربة!.. ربما!

5 الفصل الخامس



جميلة الجماليات

وفي عصر

، وبما أتيتك، كان أقصى ما استطاع أن يمس به
المرتزة تماثيل رمسيس العظيمة مجردة... وخريشات،
وتبدل الزمن فأصبح للمرتزة مجالب أقوى، وصارت
، وخريشاتهم، عابرة للشارت، بعدما أصبحتا حريصتين
على تقديم أطاقرنا كل يوم..

صُفُور «جَبَابِ» وَفُتُولَ «لَا يَمِينُ»

«هوية» أمضى فى طريق على جانبيه ألغام فلا
يمكن الانحراف عنه.. عن الطريق!

وأمامى اتجاه واحد يقودنى دائماً إلى كائن - حتماً -
سيطالبنى ضباط العالم الرابضون عليها بإبراز أوداقي..
مهما اهتزت هيبتهم وسقطت أبراج تجارتهم.. سلاحهم
مصوب نحو قلبى وعقلى فلا فكاك.. ولا «جرين كارد»
معى، ليس فى جيبي سوى صورة لعبد «أبوسمبل» وفى
قلبى تجلس جميلة الجميلات «نفرتارى».. فهل سيسمح لى
السادة «المارينز» بالمرور؟ وهل سيعود رمسيس الثانى
عملاقاً - كما هو فى تماثيله - فيعودون إلى جحورهم؟..
أعرف - وتعرفون - الإجابة.. لا أجرؤ على البوح بها..
أمضى فى طريقى.. أحلم.. وأفיק عند أول كمين أبحث فى
جيبى.. لا «جرين كارد».. أسألهم: هل تكفى صورة
«أبوسمبل»؟! يقولون: لقد غرق! أقول: كان ذلك فى
الستينيات وتم إنقاذه يقولون: نحن الذين أنقذناه (!)..
بإ

فى الزمن
الذى وُلدت
فيه الجبال
معبدى
«أبوسمبل»
كانت الجبال
هى الجبال
الموجودة اليوم
لكن لم تعد
الرجال هى
الرجال

أسألهم - فى سرى طبعاً :- وهل معنى ذلك أنه أصبح مملوكاً لكم؟..
يتركونى لفترة.. يتهامسون فيما بينهم.. أسمع أصواتاً عبر أجهزة
اتصالاتهم عبارات وأسماء غريبة على أذنى.. «عولة»، «جات» «بن
لادن».. «B2».. «باتريوت».. وعلى البعد أرى نوراً كجداول شعر أصفر
تتدلى فوق بنيان مرمرى.. تذكرنى الجداول بالجدائل التى تحملها
ساكنة القلب.. والبنيان هو البنيان الذى أحفظه عن ظهر قلب!
«أبوسمبل» أضىء من جديد.. وصوت «رمسيس الثانى» رعد لا شبهه
له وسط رعد الـ «B2».. أحلم من جديد أن ينتبه السادة «المارينز» لى..
ليسمحوا لى بالمرور أو يتركونى أعود إلى مجدى الهارب.. فى زمن
الهاربين من أنفسهم ومن الـ «اف. بى. اى» فى «قندهار» أو فى
شبرا.. لم يعد لنا إلا الحلم.. سلاح الهاربين فى زمن القنلة!

قد أكون مملأ.. لا يهمنى.. لأنى أعرف أنه لا يهكم، فماذا فى
العالم لم يعد مملأ.. لكن من رحمة الله تلك الطاقات من النور التى
يفتحها لنا بعد أن انسدت - حتى - طاقة النور التى تنتظرها فى ليلة
القدر! طاقة جديدة أثارت فى نفسى الشجن ممسوحاً بطبقة رقيقة من
الفرحة وأنا أرى معبدى «أبوسمبل» عام ٢٠٠١ ينيران فضاء ليلنا
الطويل عبر افتتاح مشروع الصوت والضوء هناك. افتتاح المشروع
الضخم فتح باب الحنين والأنين والمقارنة بين زمنين.

ففى الزمن الذى ولدت فيه الجبال معبدى «أبوسمبل»، كانت
الجبال هى الجبال الموجودة اليوم لكن لم تعد الرجال هى الرجال،

ولم يعد موجوداً عقل مثل عقل «رمسيس عشاحب» المهندس
العبقري الذي بنى المعبدین..!

ما أبعد - وأتعب - المسافة بين جبال وكهوف - فى البر الغربى
وجبل السلسلة وأبوسمبل - كانت تنير للقادمين الطريق.. وكهوف
أصبحت الآن ملاذاً لقطاع الطريق. وكهوف أخرى - فى متاهة -
تمشى على قدمين.. تركب الميكروباص ومترو الأنفاق ولا تعرف
الطريق إلى أى طريق!

يستحق «أبوسمبل» كل هذا الشجن عند تذكر أيام صاحبه «سيد
البنائين» رمسيس الثانى.. معبد لا نظير له ضخامة وروعة وإحكام
بناء.. فهو الوحيد المنحوت تماماً فى الصخر..

اختاروا صخرة كبيرة نحتوا فيها وفى داخلها كل هذا البنيان
الشامخ.. معبد كان مقصوداً به - فى الظاهر - حب رمسيس الثانى
لربه «رع حور أختى» ومن أجل والده «آمون» أقامه فى أرض
«تاركنس» - الاسم القديم لأبوسمبل - لكن المقصود من المعبد بالطبع
تأكيد القوة والمهابة عند أبعد نقاط حدود مصر جنوباً..

ضخامة تماثيل رمسيس الثانى الأربعة التى تصدرت واجهة المعبد
كان مقصوداً تضخيمها.. ليثير الفرع فى قلب كل من تسول له نفسه -
من الأعداء - الاقتراب من حدود مصر. وهى فكرة كانت أساسية فى

ذهن كل الفراغنة العظام «سنوسرت الثالث» جعل حدود مصر عند
«سمنة» جنوب الجندل الثانى وأقام سلسلة من القلاع والحصون على

طول النيل كنقاط دفاع ومراكز تجارية

«أبوسمبل» هو المعبد الوحيد من نوعه الذى تتوغل فيه أشعة الشمس فى أعماقه - ٦٠ متراً - لتصل فى النهاية إلى أعرق نقطة فيه «قدس الأقداس» فى يومين لا يتغيران كل عام فتضىء ثلاثة من التماثيل الأربعة المنحوتة بداخله وهى تماثيل «رع حور أختى» معبود هليوبوليس و«أمون» معبود طيبة وتمثال لرمسيس الثانى الذى ساوى نفسه بالآلهة. أما التمثال الرابع فهو له «بتاح» معبود منف ورب العالم السفلى وراعى الفنانين وهو يقع فى أقصى اليسار ولا تصله أشعة الشمس لأنه يجب أن يظل دوماً فى الظلام إلى الأبد تماماً مثل حاله فى العالم السفلى .

وتستمر ظاهرة تعامد الشمس نحو ٢٠ دقيقة فى يومى «٢٢ فبراير» و«٢٢ أكتوبر» من كل عام بعد إن كانت تدخله يومى «٢١ فبراير» و«٢١ أكتوبر» من كل عام قبل أن ينتقل المعبد من مكانه القديم مع مشروع إنقاذ آثار النوبة، وليس الإعجاز فقط فى انضباط دخول الشمس إلى عمق المعبد فى توقيت لا يتغير فى كل عام ولكن فى حركة تشبه حركة «الكاميرا» تحكم بها العبقرى مصمم المعبد فى حركة الشمس إذ تبدأ أشعتها - كل عام - فى هذين اليومين دخولها من قمة رأس تمثال «بتاح» آله «منف»، وتحرك على أطراف أشعتها فى جلال حتى قدمى التمثال، ثم تنتقل إلى قدمى التمثال المجاور له وهكذا الحال مع بقية التماثيل فى مشهد العشرين دقيقة التى قد تمتد إلى ٢٤ دقيقة!

لم يقطع الأثريون بشكل حاسم سر اختيار هذين اليومين وهل هما يوافقان عيد ميلاده وعيد تتويجه أم يوافقان مناسبتين لا نعرفهما؟ ما نعرفه فقط أن الرائع «رمسيس عشاحب» المهندس العبقري الذي بنى هذا المعبد أراد أن يجعل كل شيء ينطق جمالاً ودهشة.. الصخر الذى نحت منه المعبد والشمس التى جعلها تسترخى فى دلال داخل قلبه!

ولا خلاف على أن أروع وأبهى أجزاء هذا المعبد هو واجهته التى يتداخل فيها همس الصخر ودقة التقاسيم فى ضخامة صمت تعبيرات وجوه تماثيل رمسيس الثانى الأربعة، وتشكل تلك الواجهة صرحاً طوله ٣٣ متراً وعرضه ٢٨ متراً، ونُحتت هذه التماثيل فى كتلة من الحجر الرملى بشكل يتناسب مع وضعها فى التصميم العام، وبصورة تجسد ألوهية وقدسية ذلك الملك وحضوره الطاغى «ألوهية» وعسكرياً، وتؤكد ذلك الألقاب المنقوشة على أكتاف التماثيل مثل: شمس الحكام، حاكم الأرضين.. كما هو مدون على التماثيل الجنوبيين.. ثم محبوب آمون ومعبود آتون «أحد آلهة الشمس» على التماثيل الشماليين .

يبلغ ارتفاع هذه التماثيل قرابة عشرين متراً وتمثل الملك جالساً متزيناً برموز ملكية كاللحية المقدسة والتاج المزجج، التفت حول ساقى كل تمثال تماثيل أصغر لأمه الملكة «تويا» وحببية قلبه - وقلبي بعد إذنه - «نفرتارى» وأبنائه «آمون خرحبشف» و«رعمسو» وبناته «نبتاوى»

و«نبت عنات» و«مریت آمون»، ویطل رمسیس الثانی من خلال تماثیلہ
الأربعة على سر.. مصر الباقي «النیل» .

وتحمل تلك التماثیل نقوشاً تبیل على أن زمن المرتزقة وقطاع
الطریق - فی مصر أو علیها - قديم.. فالساق اليسرى للتماثل الجنوبی
الثانی تحمل نقشاً بونه بالخط الأغریقى جنود الأغریق المرتزقة
بالجیش المصرى الذى أرسله الملك «بسماتیک الثانی» من الأسرة
السادسة والعشرين الصاویة خلال القرن السادس قبل المیلاد إلى
بلاد النوبة، وهذا النقش واحد من عدة نقوش تركها الجنود المرتزقة
من أغریق وكريتیین وسامیین وغيرهم ممن كانوا أجراء فی جیوش
العصور الفرعونیة المتأخرة، وكان واضحاً أن كثيراً من أجزاء واجهة
هذا المعبد كانت مدفونة فی الرمال كما توضح ذلك بعض رسوم -
وصور الرحالة ولعل ذلك - وفق الدكتور زاهى حواس - هو ما یبرر
عدم ذکر هذا المعبد ضمن عجائب الدنیا السبع.

ومن الطریف أنه مر بذلك المعبد عام ١٨٨٤ - أى بعد حملة
بسماتیک بأكثر من ألفى عام - حملة الجیش المصرى المعروفة بحملة
النیل العسکرية التى كانت تضم ضباطاً بریطانیین - أى عسکریین
أجانب مثل مرتزقة حملة بسماتیک السابقة - وكانوا فی طریقهم نحو
الجنوب للقضاء على ثورة المهدي فی السودان وتركت تلك الحملة على
مشارف المعبد لوحة حجرية منقوشة - مثلما فعل أسلافهم المرتزقة -
فضلاً عن تابوت أحد الضباط الإنجلیز الذى لقی حتفه فی الطريق فی

أرض غريبة عنه.. ففي عصر «بسماتيك» كان أقصى ما استطاع أن يمس به المرتزة تماثيل رمسيس العظيمة مجرد.. «خريشات» وتبدل الزمن فأصبح للمرتزة مخالب أقوى وصارت «خريشاتهم» عابرة للقارات بعدما أصبحنا حريصين على تقليد أظافرننا كل يوم!

ومن واجهة المعبد البهية تدخل إلى صالة أعمدته الكبرى فتجد طولها ٢٠ متراً وعرضها ١٨ متراً تتوسطها ٨ أعمدة مربعة عليها مناظر لرمسيس الثانى مع العديد من الآلهة المصرية، ويبلغ ارتفاع تلك الصالة ٩ أمتار على جانبيها تماثيل ضخمة لرمسيس الثانى فى هيئة «أوزير» رب العالم الآخر، ولعل الرهبة التى أراد بها باني المعبد أن تشع فى روح من يمر به مازالت موجودة حتى اليوم رغم عوادي الزمن التى أماتت أنواعاً من الرهبة وخلقت أخريات! تزبحم صالة المعبد بالعديد من المناظر التى تسجل المواقع الحربية الشهيرة التى خاضها رمسيس الثانى ومن أطرف المناظر التى تجدها داخل المعبد لوحة تصور رمسيس الثانى وهو يداعب حيوانه الأليف - ليس قطة أو كلباً كما قد تتصور - لا.. إنه مجرد أسد! فهو الملك القوى الذى يصبح الأسد قطعاً بين أصابعه!

أما أهم مناظر الصالة ففوق جدارها الشمالى الذى يمثل معركة «قادش» التى دارت بين رمسيس الثانى وملك الحيثيين فى آسيا الصغرى وحاول القضاء على النفوذ المصرى فى سوريا ولبنان وقد خلدت قصيدة «نبتاؤور» تلك المعركة على أوراق البردى وتفيض

القصيدة تبتلاً من رمسيس الثانى وهو يناجى أباه «أمون» الذى استمتع مناجاته وجاءه واعداً إياه بالمساعدة بعد أن كاد العدو يهزمه وتحولت الكارثة المتوقعة إلى معاهدة سلام مع الحيثيين، وفى المعبد أيضاً الصلاة المستعرضة ١٢، ١١ متراً وقد زينت أعمدتها مناظر رمسيس الثانى فى حضرة الآلهة.

ويرى الدكتور ثروت عكاشة فى موسوعته المهمة «تاريخ الفن.. العين تسمع والأذن ترى» أن «أبوسمبل» يتميز عن كل المباني التى أقامها رمسيس الثانى برهافة الحس الفنى ورقة الإيقاع الهندسى المعروف عن معابد الأسرة الثامنة عشرة» إلا أن ذلك لم يمنعه من الإشارة إلى أن التصوير فى عهد الرعامسة - مع النحت - قد دخل مرحلة التدهور وإن كان التصوير قد حافظ على ألوانه الرائعة اللطيفة وعلى أناقة الأجسام ورشاققتها مع بقايا واقعية فن العمارة فى تفصيلات الجسم خلال عهد سبتى الأول..

فى عهد رمسيس الثانى بدأت الأشكال تفقد ليونتها وطراوتها رغم احتفاظها بأناقتها كما فقدت نبض الحياة ولم تبق سوى الأكاديمية، ويضيف - عكاشة :- إن الفن الرعمسى يعيبه طابع الإهمال والتعجل الذى شجع التلقائية»، لكنه ينبه إلى أن تلك الملاحظات لا تنطبق تماماً على بداية عهد الأسرة التاسعة عشرة، أى عهد سبتى الأول ورمسيس الثانى «حوالى ١٣٠٠ ق.م» فقد ورثت هذه المدة التجارب الأخيرة للأسرة الثامنة عشرة فكان منها مزيجاً من الدقة الأكاديمية والاتجاه

الحديث، وملاحظات الدكتور عكاشة لا تعنى السلب بقدر ما تعكس المستوى الفذ الذى بلغه الفن المصرى القديم إلى الحد الذى يتيح لأحد أن يبدى ملاحظات على أبوسمبل أو مقبرة نفرتارى ولعل هذا المستوى الفنى المصرى القديم هو الذى أصاب إبداع العمارة الحديثة المتمثل - مثلاً - فى برجى مركز التجارة بنيويورك بالقهر فإنهارا كمدأ.. وسريعاً دون أن يخلد من بنوه أو.. من دمره!

وعلى استحياء يقضى قرب معبد أبوسمبل الكبير - بنظرة فيها دلال ورقة - المعبد الصغير الذى بناه رمسيس الثانى لحبه الكبير، جميلة الجميلات زوجته «نفرتارى»، وكرسه لعبادة ربة الحب والجمال «حتحور» لتتلاقح مهابة الملك بعذوبة الحب، ولا تحتاج نقوشه ولا تماثيله لوصف فهى فوق الوصف مادام أمرها يتعلق بـ«نفرتارى» التى كأنها قدمت من السماء فرحلت إليها - سريعاً - فى ريعان شبابها، ولعل ذلك سبب محتمل لشدة تعلق رمسيس الثانى بها دون زوجاته الأخريات..

«نفرتارى»، «نفر» تعنى طيب أو.. حلو.. ومعنى الاسم كاملاً «أحلامهم» أو «أحسنهم» وكانت لها ألقاب كثيرة منها: «سيدة الصعيد والدلتا»، «سيدة كل الأراضى»، «عظيمة المديح»، «جميلة المحيا»، «ربة الفتنة»، «حلوة الحب»، «مليحة الوجه» أما أرق ألقابها فهو.. «الملكة التى من أجلها تشرق الشمس»..

إذا نزعنا من على عينيك غشاوة نساء العالم الآن ودققت فى

ملاحمها المصورة - خاصة فى مقبرتها التى تصيب بالهوس لفرط روعتها، لايقنت بأنها - حقا - امرأة لا تليق الشمس إلا بها وحدها.. وأثارها تؤكد أنها كانت امرأة مخلوقة من الرقة والدقة.. رقة الحضور ودقة الملامح التى أجبرت رمسيس الثانى على أن تلتصق تماثيلها تماثيله خلال العشرين سنة الأولى من حكمه، وخلدها كقصيدة حب بمقبرتها النادرة فى وادى الملكات بالأقصر إلى جوار معبده الكبير بمعبدها الصغير فى أبوسمبل فى أروع مكان يمكن أن تشرق الشمس فيه لأجلها!

يضم معبدها لوحة شديدة الإيحاء وهى التى تصورها وقد وقفت بين المعبدتين ايزيس وحتحور تتوجانها وتمنحانها الحماية، ووصف «ريكس كيتنج» فى كتابه «النوبة ساعة الشفق» هذا المنظر قائلاً: «إن هذه الصورة رغم رزانيتها وانعزالها لشديدة الاغراء!!» فما أجمل الإغراء الرزين ممزوجاً بدفع الشمس وهى تترتاح ناعمة على صدر النيل! .

وبعد، ألا يستحق كل هذا الجمال والحب الذى كان ألا يموت؟.. سؤال ساذج بالطبع.. لكن الأهم أن هذا الحب والجمال تعرض للغرق مع بداية إقامة السد العالى فتجمع العالم لإنقاذ أبو سمبل - رغم كل الخلافات السياسية لكثير من الدول مع مصر - فى مشروع إنقاذ آثار النوبة الخالد. ثم تعرض مرة أخرى للإهمال حتى أحياء مشروع جديد بدأ الإعداد له منذ سنوات واحتفلنا بانتهائه «٢٠٠١» تضمن تأميناً

للمعبد وإنشاء مركز للزوار وإقامة حرم واضح المعالم للمعبد الذى كان مستباحاً لدخوله.. وكل تلك الخطوات سترى نور الشمس صباحاً وشعاع مشرّوع الصوت والضوء ليلاً لتظل الشمس الحقيقية والصناعية تشرق لأجل «نفرتارى» دون انقطاع مما سيسهم فى المزيد من الإقبال على المعبد وتم إعداد نص خاص مع عروض الصوت والضوء شارك فيه عدد من خبراء الآثار منهم الدكتور الراحل جمال مختار والدكتور جاب الله على جاب الله ويختلف عرض الصوت هناك عن غيره من العروض فى مصر من حيث روعة الإبهار، وملخص العرض أن الملك رمسيس الثانى يحكى تاريخه وأمجاده وانتصاراته العسكرية وقصة بنائه للمعبد فى أبوسمبل.. وقد جاء صوت وضوء أبوسمبل فى وقت اتسع فيه «ضوء» الظلام و«صوت» القبح.. وأتذكر الآن فكرة سمعتها كثيراً من الفنان التشكيلى فاروق حسنى - وزير الثقافة - وهى «إن تلك الصخور التى كانت تلد فناً على أيدي فناني ونحاتي مصر القديمة العظماء»

ولعل أعظم تلك الولادات تمت من رحم تلك الصخرة الكبيرة التى كانت كتلة صماء نحتتها أيدي عمال كائنهم الشعراء كتبوا بأزاملهم وأناملهم وعرقهم أجمل الأبيات.. فمعبدا أبوسمبل تم نحتهما بالكامل داخل تلك الصخرة الضخمة التى كانت ترسو على النيل هناك.. لم يدخلوا إلى صالتي المعبد أى رسم أو تمثال أو جدار.. فمن الصخر نحتوا تلك التماثيل والصالات الداخلية دون أن يحملوا إلى المعبد

أى شىء من خارجه سوى خيالهم المتجاوز للخيال!

...

...

كان فى العالم سادة - بحق - بنوا «أبوسمبل» وغيره من علامات
المهابة وصفاء الذهن الذى أنضجته شهوة الإبداع.. لكن الوقت تبدل
عبر آلاف السنين - التى مازال «أبوسمبل» شامخاً يرقب فى غموض -
مصير أبناء سمبل.. أبناء الذين أقاموا تلك المنارات وهم فى متاهة
وأصبح كل «ابن سمبل» منهم لا يعرف إجابة السؤال المهم: إلى أين؟
ولا السؤال الأهم: ما العمل؟ فى هذه الأيام التى أصبحت كطعم الماء
والناس الذين من كثرة طلائهم لأنفسهم بالألوان أصبحوا بلا لون!..
«قلب» الصخر قبل آلاف السنين كان يذوب رقة تحت مطارق وأزاميل
نحاتى «أبوسمبل» و«قلوبنا» التى هى من لحم ودم أصبحت تدمى
وتجرح بقسوتها مشرط مداويها ولسة محبيها، وكأنه لا يكفيها
مصيرها المجهول فى زمن «بن لادن» الذى لن ينتهى بموته!.. وكل ما
أخشاه أن أعيش أياماً أراها تقترب بعطنها النفاذ يشاهد فيها الناس
أفلاماً - ستصبح ساعتها قديمة - يستمعون فيها إلى كلمة.. «قلب»
فيكشرون ويسألون بعضهم - فى نفس واحد:

- يعنى إيه قلب؟

6 الفصل السادس



انتحار الربيع في لندن

ليس صحيحاً أن
عيني سعاد لهما جفتان كما هو شائع... والصحيح أنه
كانت لكل عين شفاء.. تبسم..

لا يقطع ملل هذا الكون إلا كائنات مثل حوائط
المجد ..

نعلق فوقها كل آيات الفتنة والجمال ..
تكون الحياة بلا طعم فننظر إليه .. نبيل ريقنا وقلبنا
وشيقنا ..

فى زمن الوحل نرجم تلك الحوائط ..
نظل نقذفها بالطين أو التجاهل ..
ويظل الحائط يبتسم ..
يعطينا جمالا أكثر ..
تستقرنا قوته .. فننفسوا أكثر ..

نتنظر مزيدا من الابتسام يأتى من «لندن» فلا يأتى! ..
تأتى المفاجأة المتوقعة ..
يقفز الحائط فى الهواء ويلقى بنفسه على الأرض .
يتناثر قطعاً ..

بيدوان

صلابة

الابتسام

طوال الوقت

لا تحمى

سوى حائط

من زجاج

جميل لا ..

فندرك بعد انتحاره أن صلابة الابتسام طوال الوقت كانت لا تحمى سوى حائط من زجاج جميل!!.

لم أستغرب أبدا موت سعاد حسني - أو انتحارها - لأنه كان النقطة الطبيعية التي كانت ستصل إليها بعد أن انطلقت سريعا من نقطتها الأولى: «الاكتئاب»، وفي بعض الأوطان والأزمان تسقط النجوم من سماءها، لكنهم كانوا يفرشون لها قلوب الناس وساند لتستقر فوقها النجوم بكل راحة .. وتتسلمها أيدي الأحبة لتعيدها إلي سماءها من جديد .. لكننا وفي زماننا نخطط طوال الليل كيف نشطب النجوم من السماء ولو بقلم رصاص دون أن ندري على من نطلق الرصاص .. ونقذفها بكل ما نملك ولو بنبال الشائعات الرخيصة ونحاول أن نصطادها بأي «طعم عفن» .. قد يصل الطعم إلي النجم لكنه حتما لا يبلعه .. فكلب البحر لا يصبح أبدا قرشا!.

والمؤلم أن ما تعرضت له سعاد ليس وليد مرضها الأخير وإقامتها الطويلة في لندن .. لكنه مرض مزمن يتعرض له الوطن منذ عقود طويلة، وازداد استفحالا في السنوات العشرين الأخيرة، حيث كان الكثيرون قبل تلك السنوات مكდسين في مركب الأحلام التي اصطدمت بشعاب اشتراكية وانفتاحية كثيرة، فأوقفتها في مكانها فبدأنا نأكل بعضنا موفرين بذلك مجهودا حريبا كبيرا علي الأسماك التي كانت تتربص بنا!.

حياة سعاد ومسيرتها الإنسانية تجسد نموذج الفتاة المصرية التي تصدق في لحظة تطهر أو جنون أنها يمكن أن تكون نفسها ..

يصفق لها المشتهون بكل شبق في البداية، فتصدق أكثر وأكثر، لكنها تكتشف في وسط الطريق أنها لابد أن تظل ترقص في وسط الدائرة ، وهم وحدهم الذين يحدون مساحتها ولونها. قد تبدأ بأن تكون فلاحه «حسن ونعيمة» لكنها لن تظل طويلا «زوزو» أو «أميرة حبي أنا» وحتى إن تساءلوا معها «علي من نطلق الرصاص» بعد أن أدخلوها «الكرنك» .. فسيظل هناك «الراعي» وهي فقط إحدى «النساء»!.

أترك لغيري الحديث بتفصيل أكثر عن مسيرة سعاد السينمائية وتنوع أدوارها، لكنني هنا سأحاول الاقتراب من تلك الإنسانية التي ذابت سريعا من فرط رققتها وشعبيتها وفقرها وشبقها وحبها للحياة والفن، ونسيت أنه كان لزاما عليها أن تحب أشياء أخرى إن أرادت أن تعيش بلا اكتئاب ولا شعر أبيض.

لا أزعم أنني ألتقيت بشكل مباشر بسعاد حسني لكنني شاهدها مرتين - بالصدفة - مرة تدخل العمارة التي تسكن فيها بالزمالك، وأخرى وهي في سيارة مع ثلاث سيدات،. لكنني كنت أشعر أنني معزوم على رحلة إلى الجنة في كل مرة أطلع فيها وجهها في أي فيلم لها، خاصة بعد أن نضجت وتوهجت في نهاية الستينيات وكل السبعينيات .. ومنذ دخلت في اكتئابها الأخير الطويل حاولت أن أقرأ كل ما أتيح لي مما يتعلق بحياتها .. ولم أجد كثيرا جديدا يمكن أن يقرأ فكل الأحاديث عنها تنقل من بعضها .. فضلا عن أنها مقلة في أحاديثها وأعرف أن ذلك الأمر طبيعي مع كل من يفعل

نفسه بصدق، لأنه يشعر بأنه يقول كل شيء على الورق أو اللوحة أو
الشاشة ولا يعرف أن يقول شيئاً آخر غير ذلك.
توقفت خلال كل ما عرفته عن سعاد أمام تلك الملامح:
- طفولتها وحياتها الشخصية.

- صدمتها الخاصة قرب منتصف الستينيات.
- تقلباتها السينمائية عبر علاقاتها بأهل الفكر.
- اكتئابها المزمن و«ارتكاريا» صورتها في عيون الجماهير.
- عيونها، التي لخصت كل شيء في كل نساء العالم.
- انها أثبتت أن ترحل وسط ضباب لندن حيث رحل «عبد الحليم
حافظ» حبها الذي كانت تليق به ويليق بها لكنه جاء في حياة
لاتعرف اللياقة، ففعل الموت يعرفها، ويكونان قد تزوجا هناك أرواحا
في سماء لندن!

لم يتحدث أحد عن نهايات طفولتها وبدايات نجوميتها على
الإطلاق!، أفضل ممن صنعها بحق وهو «القديس الصعلوك» - كما
أسماه يوسف الشريف في كتابه عنه .. «عبد الرحمن الخميسي»،
ولعله كان يشعر بما سينتهي به حال سعاد بعد أكثر من أربعين
عاما على اكتشافه لها حيث تساءل في حلقات نشرتها صحيفة
السياسة الكويتية : «هل تراني أسأت إلى سعاد حين فتحت أمامها
باب النجومية أم تراني أحسنت؟» لا تحتاج سعاد لأن تجيب على
سؤاله لأنها أجابت منذ أيام برحيلها في لندن، أما نحن، وبكل فخر،
القتلة المحترفون فنقول له: لقد أحسنت لأنك أهديتنا أخت القمر!

جمال السامح

يؤكد الخميسي علي أن سعاد كانت جزءا من ظروف اجتماعية قاسية عاشتها وتعيشها مصر باستمرار، وأنها عكست تلك الظروف في حياتها العامة والخاصة على السواء .. وبالتفصيل أكثر يقول عن معرفته بها لأول مرة: «حدث أن الدكتور لويس عوض أنشأ جماعة «الجرامفون» في كلية الآداب جامعة فؤاد الأول، وذلك إثر عودته نهاية الأربعينيات من بعثة دراسية في الخارج، وكان عبر تلك الجماعة للقاء الأول بين الخميسي وشاب مثقف يدعي عبد المنعم حافظ يعمل بالتدريس وتوطدت بينهما الصداقة شهورا ثم دعاه بعد اختفائه لسنوات لزيارة منزله بحي شبرا، كان حافظ زوج والدته سعاد، حيث كانت قد ولدت في ٢٦ يناير «عام ١٩٤٢ أو ١٩٤٣» لأب ذي أصول شامية كان خطاطا شهيرا واسمه محمد حسني البابا واشتهر باسم «حسني الخطاط» وكان مولعا بأنواع من الفنون، وصديقا للعديد من أهل الفكر والفن والشيخ محمد رفعت، كانت سعاد واحدة من ١٧ أخا وأختا غير أشقاء، فقد أنجب والدها من زوجته الأولى ثمانية هم: خديجة، وسميرة، ونجاة، وعفاف، وعز الدين، ونيل، وفاروق، وسامي، ثم تزوج «جوهرة» - أم سعاد - ورزق منها بثلاث هن كوثر وسعاد وصباح، ثم انفصل الأبوان فتركت سعاد بيت أبيها في منطقة ميدان الأوبرا لتعيش مع والدتها في شبرا بالقرب من ميدان الخازندار، وتزوجت الأم من مفتش التربية والتعليم عبد المنعم حافظ ويصف لنا الخميسي أول نظرة له على سعاد في ظل تلك الظروف الاجتماعية قائلا: كانت سعاد حين دخلت

إلى البيت واقفة لصق حوض مياه في المر، تغسل بعض ملابسها، وتدعكها دعكا يديدها، وخصلات شعرها تغطي جبينها، وأجزاء من وجهها، ولم أكن أدري لحظتها أن جدائل شعرها المنسكبة تختزن وراءها تلك اللؤلؤة النادرة المثال.

ولا يبدو تنقل سعاد ما بين الأحياء والبيوت والبلاد غريبا على حياتها «من العتبة إلى شبرا، ومن القاهرة إلى لندن، ومن أب إلى زوج أم، ومن زوج إلى آخر ثم أخير، فضلا عن معاشرتها الطويلة لأنواع من القسوة التي قد تكون رجالا - أو غيرهم - والبداية كانت مع أبيها حسني الخطاط وصلافته الشديدة في معاملة بناته اللاتي كن أوراق بنكنوت. بالنسبة له، ويروي الخميس طرائف سوداء عن ذلك حيث كان محمد حسني يسقى المطربة نجا الصغيرة - ابنته من زوجة أخرى وأخت سعاد - «الخل» عنوة حتي يمنع نموها وتظل دوما نحيفة! وبذلك تظل أمام جمهورها المعجب بصوتها الغض الرقيق المطربة الصغيرة الطفلة التي تقلد أم كلثوم في غنائها ووقفاتها وحركاتها وسكناتها. إذ كان يعتقد أنها لو بدت كبيرة السن وممتلئة فربما فقد الذهب الذي كانت تبيضه الدجاجة بعد كل حفلة تغنيها نجا الصغيرة.

لم تكن سعاد بعيدة عن تلك الحياة - والأيام - «الخل» - ولا الخميس القديس الماكر الذي التقطها لبطولة فيلم «حسن ونعيمة» مع بركات المخرج الذي رفضها باعتبارها وجهها جديدا، لكن عناد الخميس كاتبة قصة وسيناريو الفيلم أجبر هنري بركات على

الموافقة وفتحت تلك الموافقة باباً لعالم من الشهرة والمجد اقتربت فيه سعاد من قلوب الناس ومن أشياء كثيرة أخرى، القلوب احتوتها، والأشياء الأخرى .. أحرقتها أحياناً كثيرة!.

الغريب أن الخميسي عندما التقط سعاد في بداية الأمر أرادها للمسرح، فكان قد كون فرقته المسرحية ويخرج مسرحية لشكسبير ويجري بروفاتها في مقر «جمعية أنصار التمثيل»، وأرادها لدور «أوفيليا»، وعهد بها إلي مدرس اللغة العربية - الذي أصبح ممثلاً شهيراً - فيما بعد إبراهيم سعفان، أيضاً كانت سعاد تريد لنفسها في البداية أن تصبح مغنية فقد اشتهرت كطفلة في البرنامج الشهير لبابا شارو وكانت - ربما للمرة الأولى - التي كتبت فيها أغنية خصيصاً لطفلة وتقول كلماتها «أنا سعاد أخت القمر / بين العباد حسني اشتهر / طولى شبر / ووجهي بدر / وصوتي سحر / وكلّي بشر».

وسط تلك الطفولة بالغة القسوة المشحونة بهالات الفن وجدت سعاد فرصتها الأولى في السينما فاستغلتها، وحسبما صرحت في أحد حواراتها فيما بعد أنها أرادت أن تكون مغنية، لكنها كانت مجنونة بالسينما وكانت تحفظ العديد من الأدوار، وتتفعل معها، تبكي عندما تشاهد فاتن حمامة تتعرض لقلم ساخن في أحد أفلامها، وترجع سعاد إلى منزلها تقلد المشاهد والألم وتبكي ولم تكن تدري أن أمامها عشرات الأفلام والبسنيين فيما بعد ستنفس فيها عن نفسها وطفولتها التعيسة رغم أنها لم ترد أن تبكي كثيراً،

وحاولت أن تضحك أكثر وتقفز في الهواء لعلها تنسى وتنسينا قسوة الأيام وتسرب الأحلام ويعد النجوم على اللبس أو الحب!.

العرض الأول لفيلم «حسن ونعيمة» تجاريا كان يوم ٥ مارس ١٩٥٩، وفي نفس العام قدم المخرج نفسه - بركات - فيلمه «دعاء الكروان» الذي عرض تجاريا لأول مرة في يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٥٩، ولم تعد سيدة الشاشة فاتن حمامة نجمة على الشاشة، بل بدأت سعاد تتقاسم معها جانبا من الشاشة يزداد ويختلف لسنوات طويلة.

لم تظهر سعاد في فراغ بل في إطار عام خلفيته قسوة ظروف اجتماعية تعرضت لها وفضاؤه كان ظهورها - كما يقول رجاء النقاش - «مع جيل جديد من الفنانين تولوا قيادة الذوق الفني العربي أواخر الخمسينيات وكان من هذا الجيل عبدالحليم حافظ، ومحمد الموجي، وكمال الطويل، وبلغ حمدي، وكانت هي النجمة النسائية الأولى بينهم، وكانوا جميعا نجوما احتلوا موقع القيادة بعد أم كلثوم وعبد الوهاب في الغناء، وجيل فاتن حمامة وماجدة في السينما، أيضا قدمت سعاد نموذجا جديدا في النجومية يعكس صورة للأدوار الشابة المبتعدة عن الميلودراما المكتسحة لفترة الخمسينيات وأفلام الاستعراض التي اشتهرت في نفس الفترة وظهرت سعاد مع جيل جديد فيه «نادية لطفي، مديحة كامل، نيللي، نجلاء فتحي، ميرفت أمين».

برعت سعاد، دون منازعين أو منازعات، في الوصول إلى أي

قلب منذ عبارتها الشهيرة الأولي لحرم فؤاد في «حسن ونعيمة»:
«طيب يا سي حسن» قال بركات ساعتها «البت دي مستقبها كبير
جدا، الكلام واصل لقلبي من دون لف ولا دوران»، ثم إن أخطر
أسلحتها .. «عيونها» التي قال عنها كامل الشناوي بكل خبث ودقة
«ليس صحيحا أن عيني سعاد لهما جفنان كما هو شائع..
والصحيح أن لكل عين شفاها تبتسم» ما يهمني في وصف كامل
الشناوي ليس أن الشفاه تبتسم .. المهم أنها شفاه .. كانت عينا
سعاد تقولان أشياء كثيرة ربما مثل الحوار الذي تلقيه أو القبة
التي تتقاسمها علي الشاشة، وربما تقول لغتها الخاصة وهناك
مشاهد شهيرة يعرفها الجميع لعيونها أشهرها في «الكرنك» لحظة
دخول العسكري الضخم لاغتصابها فكانت لا تتكلم ولكن تتألم..
بعينها تكاد ترجوه ألا يفعل، وفي نفس اللحظة بعينها وشفتي
عينها تقول - هل هذا حلم أم حقيقة؟ لا تفعل، كذلك مشهد الساعي
وهو يدخل إليها في مكتب خالد صفوان «كمال الشناوي» نفس
الفيلم» قبل إطلاق سراحها أنه وأحد أعوانه يطلبان منها العمل
كمخبرة ويتلو عليها محاضرة عن ضرورة استفادتها والحفاظ على
الثورة.. يقدم الساعي شرابا لها .. لا تحتسي شيئا.. بعينها تقاوم
الدموع وتكاد تستنجد بالساعي دون كلام قائلة: أنقذني !! ومشاهد
لا تحصى في «على من نطلق الرصاص» و«موعد على العشاء» وهي
تهمس باكية لأحمد زكي .. «شكري .. شكري .. شكري» .. عيناها
فقط كانتا تقولان كل شيء.. والحقيقة أن قوة تعبيرها بعينها كانت

تجعل الحوار في كثير من الأحيان ثانويا، ولا أنسى تعبيرات شفاه
عينها في «زوجتي والكلب»، «السفيرة عزيزة»، «الجوع»، «عصفور
من الشرق»، «موعد في البرج» طبعاً!

وأكد أجزم أن اختزان سعاد لكل تلك الطاقة التعبيرية في عيونها
أتى من تراكم «جوانيتها» وإنها كانت على عكس مكتشفها
الخميسي المريض بداء «البوح» كانت كتومة ككل طفلة تربت على
الكبت العاطفي والذهني، فضلا عن عدم مجارة ثقافة لسانها
لعنفوان خيالها وخبرتها النفسية .

من مرحلة «حسن ونعيمة» الخمسينيات عرفت مرحلة الستينيات
سعاد حسني في أدوار البنت الشقية وبنت الحنة وفتاة الأحلام
وزعيمة الشلة والمتمردة - إلي حد ما - ، وكان ذلك متناسبا مع
عمرها الذي بلغ وقتها ٢٦ أو ٢٧ عاما، أما بعدها بعشر سنوات
منذ اختارت شكلا جديدا لأدوارها من خلال نظرة مختلفة لأدوار
المرأة عبر تاريخ السينما المصرية .. وتصف ذلك ماجدة موريث في
دراستها عنها «مطبوعات مهرجان القاهرة السينمائي ٢٢» عبر
أفلامها «الحب الضائع» الأرملة التي تقع في حب زوج صديقتها ،
«الحب الذي كان» المرأة التي ترفض الحياة مع من تكرهه، «على من
نطلق الرصاص» المخدوعة من زوج فاسد ثم المهزومة من زوجها
ومن مجتمع تنتمي إليه في الاختيار ، المقهورة من أخ متسلط في
«غرباء»، ومن ابن العمدة والأعيان في «شفيقة ومتولي» تلك المرحلة

كما - بحق - كانت مرحلة البطلة المهزومة .. ومن حقكم أن تتأملوا
معي وتتساءلوا هل كانت البطلة وحدها هي المهزومة؟!
المهم أن مرحلة السبعينيات شهدت بالنسبة لها انتصارين بعيدين
عن تلك الانهزامية «خلي بالك من زوزو» الشهير، و«أميرة حبي أنا».
وخلال تلك الفترة أيضا كان «الكرنك» الذي لا جدال أن له علاقة
قوية بالهزيمة الأقسى التي تعرضت لها في حياتها خلال الستينيات
وتمثلت في مضايقات أخذت شكلا سياسيا في ظاهرها، لكن الهدف
منها كان «شهوانيا» بحتا ويذكر يوسف الشريف في كتابه عن
«الخميسي» أن الأخير انبرى للدفاع عن سعاد دون أن تطلب منه
العون، حيث كرس الخميسي لأجل ذلك علاقاته الحميمة مع كامل
الشناوي وإحسان عبد القدوس وشعراوي جمعه، وقد تكون سعاد
أنقذت جسديا لكنها نفسيا ظلت تعاني حتى عالجتها بعضا من الأمر
في «الكرنك» الذي لاقى في جسدها وعقلها تجاوبا، مداواة للوجع
بالوجع، وتعبيرا عن المسكوت عنه خلال الستينيات، فقالت بعيونها
كأروع ما يكون خلال اغتصابها في السبعينيات .. على شاشة على
بدرخان!

لا أتصور أن سعاد سعت لصالح جاهين .. ومن قبله ومعه وبعده -
إحسان عبد القدوس وكامل الشناوي وبلغ حمدي والخميسي
وصلاح عبد الصبور وغيرهم من المثقفين، بل هم الذين تطلقوا
حولها كفراشة تريد أن تحلق وتتمرد وتشعر بالسلى والونس، ولعل
ارتباطها ازداد بهؤلاء المثقفين بعدما تعرضت لمساومات سياسية

علي جسدها خلال الستينيات! لأنها أرادت أن تحتّم بهم ذهنيا لا سياسيا أو أمنيا، فهم رغم نفوذهم تعرض بعضهم لنفس المضايقات وليس لمساومات، لأن مساومتهم في هذا الأمر- الجسد ليست بنفس الجمال، فضلا عن أن مساومة رجال ذلك الزمان كانت على العقل لا الجسد؛ ولعلها أرادت أن تعالج هذا الشرخ بالذوبان في فريق أصبح الشرخ نفسه بالنسبة إليه قصيدة أو أغنية .. وجاء شرخ الستينيات ليكون مضافا لإنكسار طفولتها المريرة فاختارت أوسع البوابات رحابة.. «الفن» وكرست له كل حياتها بشهادة كل من اقترب منها سواء الأزواج، أو الذين شغلوا عقلها وقلبها وشغلتهم، ولعل تعدد علاقتها جاء لأنها اعتبرتها كلها علاقات ثانوية وعلاقتها الوحيدة كانت بالفن الذي كانت عبر شاشته وجهاً آخر غير كل الوجوه والحكايات التي سمعناها عنها، فهي عانت من مرارة وحسرات «المشتاقين» أو الذين صدقوا أن ما تفعله برغبتها في يوم يمكن أن تفعله برغبتهم في كل يوم ؟!!

ويبدو التدرج في علاقة سعاد بالفيلم السياسي كانعكاس لذهنيتها وخبراتها الشخصية واضحا عبر تلك السلسلة «القاهرة ٣٠» ١٩٦٦، «غروب وشروق» ١٩٧٠، «الاختيار» ١٩٧١، «الكرنك» ١٩٧٥، «على من نطلق الرصاص» ١٩٧٥ .. فضلا عن أفلام أخرى تقترب من دائرة السياسة «الخوف» ١٩٧٢، «خللي بالك من زوزو» ١٩٧٢، «الناس والنيل» ١٩٧٢، «غرباء» ١٩٧٣، «شفيقة ومتولي» ١٩٧٨، ولا يمكن تجاهل أن سعاد قبل نهاية الستينيات تعلمت أكثر أن

تتوقف وأن تختار أدوارها ولو بمساعدة من الأصدقاء والمثقفين «المخرجين»، كذلك فإنها مرت بثلاثة اكتشافات الأول «بركات، والثاني صلاح أبو سيف» القاهرة ٢٠، والزوجة الثانية» وكان معه في الفترة نفسها كمال الشيخ «غروب وشرق» . ويوسف شاهين، ثم الثالث مع علي بدرخان خاصة في «الكرك» .

وعبر شهادات كثيرة للمقربين منها كانت تبدو «سوسو .. زوزو.. سعاد» ابنة حقيقية للحياة بكل نزقها وجنونها وضنها علي الورد بالربيع، لكنها كانت دائما تكسر كل تلك الحواجز أمام الفرح سواء على الشاشة أو في حياتها الخاصة، إلا أن جميع من اقتربوا منها - وحتى هي نفسها في أحد حواراتها الصحفية - يؤكدون ميلها للعزلة خاصة في السنوات العشر الأخيرة وقد تعددت الأسباب الظاهرية الفنية من فشل فيلميها الأخيرين «الدرجة الثالثة» و«الراعي والنساء»، إلا أن الساحة الفنية أصبحت طاردة لنجمات مثلها لا يجدن نفقات لعمليات «شد الوجه»، وقد يكون ذلك صحيحا إلي حد ما لكنه لا يكفي سببا أكيدا لولا استعداد داخلي عند سعاد وتراكم معاناتها، وربما اكتشافها لوهم كبير اسمه الفن وحده يكفي لتظل نجمة غنية قادرة علي دفع فواتير الغاز والكهرباء .. وأخيرا العلاج في لندن! أيضا كانت سعاد كما قال عنها علي بدرخان «موسوسة» جدا على فنها واهتمامها بكل تفاصيل الفيلم الذي تعمل فيه، وذلك جزء أساسي من شخصيتها لعل له علاقة بالرغبة في الكمال الذي يتطلع اليه - بخاصة - كل من لم يبلغه في طفولته، وتلك الرغبة كانت

سببا أكيدا في عزلتها واهلها من أن يري الناس صورتها وقد زاد وزنها وابيض شعرها وهو هلع مشروع في زمن لا تحترم فيه الحقيقة وأمام ناس أدمنوا التجميل أو التزييف .. لا فرق!!

كانت سعاد أول طفلة يكتب لها أغنية خصيصا في الإذاعة .. وانطلقت بسرعة على يد بركات - عبد الرحمن الخميسى في الخمسينيات واصطدمت بتجربة قاسية في الستينيات لكنها قاومت واقتنعت بأن «الدنيا ربيع» وظلت وقتا مقتنعة وعرفت أشياء كثيرة أخذت «دماغها» إلي آفاق يظل التعلق بها مدعاة للاكتئاب .. لم تعرف إلا متأخرا أنه ممنوع الربيع في أوطاننا الخريفية، ولعلها كانت تعرف وكانت تلك كارثتها .. فالمعرفة طريق الموت .. طريق لا يعرفه إخواننا «الحمير» كما تنبأ صديقها الذي سبقها علي نفس الطريق صلاح جاهين في رباعيته :

«الدنيا أوده كبيرة للانتظار

فيها ابن آدم زيه زي الحمار

الهم واحد .. والمثل مشترك

ومفيش حمار بيحاول الانتحار

عجبي ..»

7 الفصل السابع



« جرح بينده ..ع الحرية! »

وتعلمنا أن

المؤرخين يجب أن يكونوا أمواتاً فلا يمتلئ أن

تأكل مثل من نفس الطبق المسود ويملك القاعة

لنكتب صفة ، د

في داخلي كل واحد منا .. مؤرخ وشهيد !
فنحن الذين نعيش الأيام .. ونقتلنا - أو نقتلها -
الأيام ..

نشهد على كل شيء ولا نستطيع أن نقول كل شيء
وتستشهد فينا كل يوم مئات الأشياء ..
نرضى بأن نمشي على جثث ذكرياتنا ..
ونرتدى سترات كل صباح تحمل دماء « أو .. عرق » ..
أحلامنا التي لا تتحقق ..

نعشق ونرمي السنين سعيدة بين يدي المحبوب ونفوس
الود نلقيها بين يدي الذئاب ..
نفنى لوطن لا نعرف معناه ونشرب من نيل لا نهتم بأنه
أصبح ملوثاً ..

نبني بالحجارة فيلات وناطحات سماء ونفنى للحجارة
ال فلسطينية .. لذلك نصلح لأن نكون مؤرخين !

نتابع أخبار أتوبيسات الفضاء وأقمارنا الصناعية

عندما غنى
كثيراً جداً
للفلسطينيين
والطفال
الحجارة لجأ
إلى أجمل
الأشعار في
دواوين
الشعراء، ولم
« يولول » أو
يبكي أمام
الشاشة، أو
يرفع أصابعه
بعلامة التمسر
أمام البنات
اللاتي يرتدين
علم فلسطين
حول خصورهن
على واحدة
ونصراً

ونكتفى راضين بقديم واحدة تتشعبط» على باب أتوبيس ١٨ لذلك
فنحن شهداء..

ظللت طوال سنين لا أعرفها لا أرى فرقا بينى وبين أى مؤرخ
وشهيد، مثل ملايين غيرى من شهداء ومؤرخى الوطن الذين لم
يحاربوا أو يصنعوا تاريخا .. حتى وقفت على باب هذا القردوس ..
خلف الباب صوت وتحت الصوت نور وليس بعد الباب .. باب ..
بعده : مدى!

تعلمت منه كيف كان التاريخ وكيف تكون الشهادة ورائحة البرتقال..
كلمنى الصوت حتى الدمع .. وبللنى عطره حتى انتشيت .. وتناثرت
دماء الشهداء الحقيقيين منه حتى شعرت بخجل استماعى إليه.
ظللت طوال الوقت لا أتصور أن صاحب هذا الصوت يجب أن
يعيش .. تعودنا- فقط- على احترام الشهداء .. تعلمنا أن المؤرخين
يجب أن يكونوا أمواتا فلا يعقل أن تأكل مثلى من نفس الطبق
المسموم وتمتلك المناعة لتكتب عنه !

كنت أرى صورته .. لحيته ..، حضوره والآلاف يغنون حوله ككائن
أسطورى، لا يهم أن أفهم كل ما يقول، المهم أن صوته وموسيقاه
تلفحنى بمسّ إلهى يغير طعم الدم فى عروقى.

عند نهايات الطفولة كنت أستمع إليه لأشعر بأننى رجل يحمل بندقية،
.. يطلقها على من؟ لم أكن أعرف! وعند نهايات رجولة فى زمن
مخنث .. مطاطى أستمع إليه لأظل محتفظا ولو بمعنى الرصاص!

على دربه شممت رائحة الزعتر ولون الزيتون الذي أصبحت أكره
غصنه الممتن في رسومات السلام!، وبصحبته تعلمت كيف تكون
كراهية إسرائيل في دمي ودموعي وابتسامتي .. وأغيتي!
«مرسيل خليفة» لم أكن أتصور أنى سأكبر يوما لأكتب عنه.. لذا لن
أنجح مهما حاولت .. فمهما تقدم أبأؤنا في السن وعادوا إلى
طفولتهم ينتظرون لس أيدينا الكبيرة ، سيظلون هم الأشجع والأكبر
.. وستظل لحية مرسيل غابة كثيفة ترهبنى وتغرينى بالدخول فيها
لألوذ «بالسنديان» فى زمن «العوسج» وها أنا أفعل !

..

..

عندما رست الديناصورات المنهكة على شواطئ «أوسلو» و«مديرد»
وغيرهما . عندما سال الماء بدلا من الدماء عبر شاشاتنا وصحفنا
وأغانينا كان كثيرون يسألون متندرين وساخرين بابتسامات لزجة:
ماذا سيغنى مرسيل خليفة بعد السلام؟.. وعندما عادت الدماء
لتسيل علينا بدلا من الماء وقبل أن يكمل الساخرون «عليكم» بعد
«السلام» لم يجد الكثيرون ما يشعروهم بقليل من الاحترام إلا أغانى
«مرسيل»، وعادوا إلى «منتصب القامة أمشى/ مرفوع الهامة
أمشى» لترفع هاماتهم ولو قليلا تحت القصف الإسرائيلى وتذكروا
«فى كفى قصفة زيتون/ وعلى كتفى نعشى» ليجدوا شيئا يقولونه
حول نعوش الشهداء التى تبحث عن نعش !

«مرسيل خليفة» لأنه عاش وغنى بصدق فمن الصعوبة الكتابة عنه
فى هذا الزمن ! لأن الحروف لم تعد معتادة على أن ترتدى معنى،
والقلم أصبحت تدميه الحقيقة!

لكننا سنلوذ بالقلب ليحكى، وبالأذن لتتذكر، و«بمرسيل» نفسه الذى
لم أجد ما أقوله له عبر الهاتف قبل أيام .. تركته يتكلم .. فقط
يتكلم.. كلام كالغناء .. نفس النبرة والحماس والبساطة التى تجل
ألحانه .. وعاد صوته لينقذنى من ورطتى ووجدت الكثير لأكتبه عنه..
أنقذنى كما قال محمود درويش عنه: «لقد أنقذت أغانى مرسيل
خليفة القلب رافعة إياه على أجنحة بعيدا عن الدمار».

كان مرسيل طوال الخمس والعشرين سنة الماضية - بالفعل- يقود
كثيراً من الناس إلى الموت- أو مع الموت- بالغناء، فهو موسيقى
الثورة بلا منازع .. موسيقى حقيقى لا يحتاج إلى منصة ليخطب
كما لا يحتاج الخبز للإعلان عن نفسه إلى الجائعين كما يقول
درويش !

غنى للجنوب اللبناى وكان يقول إن غناؤه للجنوب يجعله يشعر بأن
فلسطين قريبة إلى هذا الحد. وهو يطل على هذا الفردوس الموعود
من بوابة الجنوب المحرر.

خلال الاحتلال الإسرائيلى للجنوب اللبناى منع الإسرائيليون
أغانيه وصادروها لأنهم يعرفون إنها ثورة .. ولأنهم - بالطبع -

استمعوا إليه وهو يشعل كلماته : « انهض للثورة والشار / انهض
كهبوب الإصهار / وارشم أعداءك بالنار / واهتف بالصوت الهدار /
الثورة نهج الأحرار / من غزة من قدس العرب / اخرج كالريح ولا
تهب / يا جيل النخوة والغضب / .. / وامضى كالسيف إلى الظفر /
وابدأ ميلادك بالحجر » كان يغنيها لأطفال الحجارة، لكن الحجارة،
ليست في فلسطين وحدها إنها في كل مكان على أرض الوطن
الكبير، تكون باردة دائما لكن الدماء عندما تسيل عليها كأغنيات
«مرسيل» تجعلها تحيا، .. تشتاق إلى الرمي في وجه العدو .. من
هنا منعوا أغانيه ورغم أنه «ماروني» إلا أنهم منعوا أغانيه خلال
الحرب الأهلية اللبنانية في الجزء المسيحي من لبنان، واتهموه - عام
٢٠٠٠ - بازدراء الأديان، لأنه غنى مقطعاً من قصيدة «أنا يوسف يا
أبي» لحمود درويش وخرج بريئاً ودافع عنه مفتي لبنان والشيخ
محمد حسن فضل الزعيم الروحي لحزب الله لأنه مطرب التصق
بالإنسانية ..

...

...

في قرية «امشيت» المعزولة عن بيروت بأربعين كيلو مترا ولد
«مرسيل» وسط فقراء لا يعرفون وسائل المواصلات أو الاتصالات
تقريبا .. لكن أهل تلك القرية كانوا دائما يشعرون بأن أبناءهم
سيكون لهم حظ- وشأن- أفضل.

أمسك مرسيل بأول عود في حياته وعمره ١٤ عاما، حمله معه وسافر إلى بيروت لدراسة الموسيقى في معهد الكونسرفتوار الوطني، لم يكن والده متحمسا لدراسته الموسيقى، لكن مرسيل أقنعه .. واقتنع الوالد على مضض ولم يتحمس له إلا بعد سنوات .. كان مولد مرسيل عام ١٩٥٠، .. ولم يكن والده يتوقع أن ابنه سيوحد اللبنانيين بعد عشرين عاما من هذا التاريخ على موسيقاه ! وبخاصة مع اندلاع حرب مرعبة.

كان جد مرسيل صياد سمك ومنه استمع إلى أول غناء في حياته .. كلها أغان كان تحن إلى البحر .. وقادنى مرسيل فى حوار عبر الهاتف إلى نقطة أعمق وقال: «أتذكر أن أول ما رسخ فى أذنى هو الطنين فى الحقول .. التراتيل وصوت الأذان .. وأحسست منذ البداية بتواجد روح ثورية بداخلى .. رفضت منذ البداية أشياء موروثة فى منزلى ومدرستى لكنه كان رفضا لمفاهيم محددة» !

ولعل تلك النشأة البسيطة لها الأثر الأكبر فى شخصية مرسيل، بقميصه الأبسط على المسرح يغنى بلا ادعاء ويتصعب منه العرق ويتحدث بلا استعلاء، وتشعر أنه صديق قديم، منذ الكلمة الأولى يحدثك عن أشياء يعيشها معك وتستغرب تلك البساطة على نجم لكن فى موسيقاه تفسيراً لذلك، لأنها تكشف عن كائن مهموم بشيء لا يعرفه كثيرون اسمه بحجمه، «الإنسانية».

كان «العود» خلال دراسة مرسيل فى المعهد آلة محاطة بقدسية

بالغة وقوانين صارمة، لكنه استطاع مع زملاء له تطوير تلك القوانين بثقة بالغة، ولم تمض ٢٠ عاما على مولده حتى أصبح يدرس الموسيقى فى معهد الموسيقى ببيروت خلال السنوات من ١٩٧٠ إلى ١٩٧٥، وأثناء ذلك بدأ يسطع نجمه على مهل عبر العديد من الحفلات مع فرقته التى كونها من زملاء له.. «فرقة الميادين».. إلى أن وضع كتابا مهما عن آلة العود وتقنيات جديدة فى التعامل معها أصدره عن منشورات مركز البحوث والتنمية فى بيروت.

استطاعت فرقة «الميادين» فى بداية السبعينات أن تحظى بشهرة واسعة، وأحدثت تأثيرا كبيرا فى تحديث الأغنية العربية التى تتشبع بطابع ثورى يغنى للبندقية كما يغنى للعيون العسلىة .. وقامت الفرقة بجولات فى أمريكا وعدد من البلدان العربية .. وتتكون الفرقة من عشرة عازفين معظمهم على «الكمان» و«الفلوت» والطبول ويصاحبهم مرسيل بعزفه الفذ على العود.

انتقل مرسيل إلى العيش فى بيروت بصفة نهائية فى توقيت بالغ الأثر فى حياته .. انتقل إليها والدماء تجرى فى شوارعها كماء المطر! عام ١٩٧٦، وأصوات القنابل توقظ سكانها بدلا من العصافير، وربما لأنه لم يستطع أن يحدث ثورة توقف هذا النزيف أثر صنع ثورة موسيقية تجمع الناس لعلهم يفيقون، وبالفعل استطاع أن يجمع بموسيقاه كل الفصائل المتناحرة فى بيروت وفى غيرها من البيروتات العربية!

ويتذكر مرسيل كيف كان يمضى لتسجيل أغنياته تحت القصف فى بيروت ويقول: ساعتها فقط كنت أشعر بأننى أفعل شيئا له قيمة ومعنى وأنه سيستمر ويصمد حتى النهاية.

التحامه بتلك الأحداث جعله أكثر التصاقا بالناس فدفعه ذلك إلى إبداع موسيقى تصل إليهم .. موسيقى تتكى على الماضى إلا أنها تتطلع إلى ثورة تضمّد الكلمات التى يغنيها «قلبي قمر أحمر قلبي بستان/ فيه .. فيه العوسج فيه الريحان/ شفتاي سماء تمطر نارا حنيا/ حبا أحيانا» ففى موسيقاه الأندلسيات وسيد درويش وبيتوفن مع الاهتمام بألوان البوب .. إنه أراد صنع بناء موسيقى قومى يعيد ما تهدم مثل بيوت وشوارع تهدمت فى بيروت وغيرها، واهتم بشكل خاص بموسيقى سيد درويش وعاصى ومنصور الرحباني لأن ثلاثتهم طرحوا أسئلة مهمة يحاول - هو- طوال الوقت الاجابة عنها: ماهى طبيعة الموسيقى؟ ما معناها؟ ويقول: إن لم تنجح أغانيّ فى الإجابة فأنا أتركها - أترك الإجابة- للأجيال القادمة.

لكن إجابة مرسيل تحمل قدرا كبيرا من التواضع، لأن موسيقاه وأغنياته قدمت بالفعل إجابات شافية لتلك الأسئلة وأكدت أن الموسيقى والشعر وكل شىء حقيقى جميل يمكن أن يصلح للناس، و«أن الليلة دوب» وغيرها تذوب ولن يذكرها أحد لكن الناس فى كل مكان يستطيعون الاستمتاع والفرح مع «ريتا» التى غنى لها مرسيل

أجمل أغاني الحب. حب حقيقي يقابل فيه المحبوب حبيبته ويكون
جسدها فى دمه وليس بعيدا عنه ويصبح ساعتها نداء «هاتو .. لى
حبيبى» شيئا مثيرا للثناء.. يقول عن «ريتا»: «بين ريتا وعيوني
بندقية/ والذي يعرف ريتا ينحنى ويصلى لإله فى العيون العسلية/
وأنا قبلت ريتا عندما كانت صغيرة/ وأنا أذكر كيف التصقت بى
وغطت ساعدى أحلى صغيرة /../ اسم ريتا كان عيدا فى فمى/
جسم ريتا كان عرسا فى دمى /../ وهى نامت فوق زندى سنتين/
وتعاهدنا على أجمل كأس/ واحترقنا فى نبيذ الشفتين/ وولدتنا
مرتين» وأنا أولد من جديد فى كل مرة أستمع فيها إلى تلك الأغنية
.. قصيدة «محمود درويش» علمتنى ألا أنتظر الليالى أحلم بـ «ريتا»
.. جعلتنى أشعر أن جسم ريتا هو الجسم الذى أعيش معه لياالى..
الآن وأقيم معه الأعراس فى دمى وسريرى .. أغنية جعلت المحبوبة
شيئا ألسه ولا أغنى له فقط. أستطيع أن أضع يدي عليها وأن
أجعلها تنام على زندى.. نفكر معا .. ونحلم معا .. ونصدق أن
مرسيل معه حق فى أن يحب تلك الأغنية كثيرا ويطلب من جمهوره
فى كل حفل أن يصمت عندما يغنيها .. ويطالبه بمزيد من الصمت
.. فالصمت فى حرم الجمال جمال !

...

...

لم يغن «مرسيل» لـ «ريتا» فقط بكل هذا الحب والوله لكنه غنى لكل

ما استطاع فى الحياة ولم أدرك ذلك إلا مؤخرا لأنه يصنع شيئا مركبا على بساطته، فهو على طريقة أحد أساتذته سيد درويش يعنى لبائعى الخضار وسائق الأجرة «الشوفيرية»: «شو بدك تمشى/ تا تمشى حتى ترد المصريات/ياعم بنحرق بنزين وزيت وكرامات/ والتعريف ما بتتزايد» وغنى للبائعين فى أسواق الروابكيا «أغنية البياعين»، أما الأطفال فقد تحبهم أكثر وهو يغنى لهم أو يترك تلميذته «أميمة» تقول لأحدهم «نامى نامى يا صغيرة/ تعى نامى ع الحصيرة»، أو: «يا معلمتى .. يا معلمتى - ايجه الديب .. ايجه تايا كلنا بنعمل شو»، وفى هذا الحوار الجميل بينه وبين طفل عن عسكرى مرور يقول له الطفل: يا بوليس الإشارة طفى وضوى الإشارة / صار لى مدة واقف هون ما عم توقف سيارة» ويرد عليه مرسيل : عسكرى المرور: يا ولد مش فاضى لك عندى عشرة دوايب»، ويستمر الحوار طريفا بسيطا ويقول له الطفل مادامت المسألة «تنفخ» فى الصفارة «جيبوا شرطة م الأولاد» ويعبر عسكرى المرور عن زهقه من الطفل فيقترح عليه أن يعين نفسه ضابطا ويرد العسكرى بأن جده ليس «بيه» لذلك لا يصلح ليكون ضابطا فيقول الطفل «يا بوليس الإشارة مادام معك بارودة يا قوص» أى تطلق النار» يا روح عيّن جدك بيه».. والأغنية جميلة طريفة بعض كلماتها باللهجة اللبنانية قد تبدو غير مفهومة عند كتابتها إلا أنها مفهومة جدا لكل العرب عند غناء مرسيل وهذا هو ما نجح فيه.

وقبل أن نمضى إلى مفصل مهم فى غناء موسيقى مرسيل- وأقصد فلسطين- نشير إلى أنه شارك وقدم العديد من الأعمال الغنائية المهمة منها «البحر».. «هروب اليسار».. «تتويج فى الحرم الفينيقي».. «ديوان الهرم» «اجلال إلى بعلبك» الذى قدمه عبر لحن أوركسترا لى منذ ١٨ عاما، وظهر فى ألبومه «فرح»، أما لحنه الرائع «البساط السحري» فهو يتكون من ١٢ مقطوعة قدمها لفرقة كاركالا المسرحية الشهيرة ولهذا العمل أهميته الموسيقية البالغة ويراه بعض النقاد الموسيقيين ثورة جديدة فى الموسيقى العربية يعيد إلى البال عمله الرائع الذى ظهر منذ سنوات «حلم ليلة صيف».. وتذكر عبر مسيرة مرسيل أن الرقى لا يعنى التعقيد، وأن الأشياء الجميلة ليست محرمة على البسطاء.. فهو عندما غنى كثيرا جدا لفلسطين وأطفال الحجارة لجأ إلى أجمل الأشعار فى دواوين الشعراء، ولم «يولول» أو ييكي أمام الشاشة، أو يرفع أصابعه بعلامة النصر أمام البنات اللاتى يربطن علم فلسطين حول خصورهن على واحدة ونص!، لكنه قال - مثلا- «بالأخضر كفناه بالأحمر كفناه بالأبيض كفناه» وينوب القلب معه ومع هذا الحنين الدرويشى وهو يهمس بأروع ما أحب «أحن إلى خبز أمى وقهوة أمى ولسة أمى .. وتكبر فى الطفولة يوما على صدر أمى.. أعشق

عمري لأنى إذا مت أخجل من دمع أُمى.. خذيني أُمى إذا عدت يوما
وشاحا لهدبك وغطى عظامى بعشب تعمد بطهر كعبك .. وشدى
وثاقى بخصلة شعرك .. بخيط يلوح فى ذيل ثوبك .. ضعيني إذا
مارجعت وقودا فى تنور نارك .. وحبل غسيل على سطح دارك»،
و«انهض للثورة و الثار» و«يابحرية»، و«أنى اخترتك يا وطنى حبا
وطواعية/أنى اخترتك يا وطنى سرا وعلانية/ أنى اخترتك يا
وطنى/ فليتنكر لى زمنى/ ما دمت ستذكرنى يا وطنى» أى وطن
وأى فلسطين يغنى لها مرسيل إنها كل الأوطان.

وقد استطاع بالشعر أن ييسط الموسيقى وبالموسيقى أن ييسط
الشعر واستطاع أن يحمى الموسيقى من الوشايات الحاقدة كما
وصفه عبد الإله بلقزيز!

إن مرسيل استطاع أيضا أن يجعل المستمع لأغانيه يحترم قواعد
الاستماع، وتشاهد فى حفلاته عشرات الآلاف فى بعض الأحيان
يكونون «كورس» لأغنياته، عندما يطلب منهم، ويصمتون تماما
عندما يشير إليهم بذلك وتستغرب كيف يستطيع أن يجمع هو
عشرات الآلاف حول صوته فى مكان واحد ولا يستطيع ذلك عشرات
من المفكرين والكتّاب والزعماء؟!

وعبر الكثير من أعماله يبدو مرسيل من أشد المدافعين عن الثقافة
بشكل عام، والشعر الحديث خاصة بصورة حضارية وبلا زيف، فهو
غنى كثيرا للسياب ومحمود درويش وأدونيس وسعيد حقى.

سألته لماذا تتغير أشياء كثيرة ولا تتغير أنت؟ فقال: لأننى لست مناسبة وتمضى! وأنا لم أقدم أبدا موسيقى وأغانى لمناسبات سياسية أو لحدث، فالموسيقى والغناء ممارسة للحرية ودفاع شرس ضد السلطة .. أى سلطة، والأغنية سلاحى لمقاومة تدهور اللغة واستغلالها تحت كل الرايات .. لذلك أحاول دائما الهرب إلى الأمام بعيدا عن الطابور /القطيع.

وسُئل مرسيل مرة عن الثورة التى يتمناها فى الفن فقال: أطمح إلى ثورة تجمع بين الخبز والزهور .. العدل والحرية .. الحب والجمال.. وارتباط مرسيل وأغانيه بالشعر مقصود، ويأتى على خلفية ثقافية رفيعة يحصن بها نفسه من الموجات التجارية والسطحية وهو - كما يقول- يريد أن يدفع الناس بموسيقاه نحو الشعر .. ويتذكر أن كثيرين كانوا يطلبون منه فى بدايات عمله كأستاذ للعود أن يبسط ما يكتبه- موسيقيا- لكنه كان يرفض إيماننا منه بأن الطلاب مدعوون للتعلم، وهو يرى أن الجمهور كذلك مدعو لتعلم تلك الأشعار الصعبة التى يختارها .. ومن يصدق أن يغنى الناس مع مرسيل كلمات السياب أو محمود درويش ؟ من يصدق ذلك يفرح ومن لا يصدق فليشاهد الآلاف يرددون خلفه تلك القصائد فى حفلاته !

ولعل مرسيل نجح كثيرا فى السير عبر درب صعب جدا تهابه الموسيقى العربية دائما، وأقصد درب العقل، لأنها طوال الوقت كانت تجرى فقط خلف ندأة القلب .. لكنه استطاع بموسيقاه أن

يضع بدايات حقيقية لطريق موسيقى عربى يجمع بين القلب والعقل! وربما تكون تلك الأغنيات سببا مع غيرها فى إعادة العقل لنا، وإن كانت تلك الأغنيات أو المحاولات لا تسلم من غياب العقل، وهو ما عانى منه مرسيل نفسه عندما اتهموه بازدياء الأديان وكان مهددا بالحبس ثلاثة أعوام لأنه غنى قصيدة محمود درويش «أنا يوسف يا أبى»، وأختار مرسيل تلك القصيدة لا ليزدري دينا ولكن لأنها تصف كفاح شاعر فى منفاه، وتوضح بصدق صورة الحياة فى الوطن العربى بشكل عام .. وكان من الصعب على الجميع تصديق تلك التهمة على مرسيل لأنه ظل طوال الوقت ملتزما بالثورة والحب بالكفاح والأحلام والناس، ولم يضع فنه فى ثقافة أو سياسة محددة، ودافع عن مرسيل مئات علماء الدين والمتقنين، وربما لم يكن بحاجة لدفاعهم فموسيقاه أبقى دفاع له وكلمات درويش التى أثارت الأزمة تقول- وهى من مجموعته «ورد أقل»- «أنا يوسف يا أبى يا أبى إخوتى لا يحبوننى، لا يريدوننى بينهم يا أبى/ يعتدون على ويرموننى بالحصى والكلام/ يريدوننى أن أموت لكى يمدحونى/ وهم أوصدوا باب بيتك دونى/ وهم طردونى من الحقل/ هم سمموا عنبنى يا أبى/ وهم حطموا لعبى يا أبى/ حين مرّ النسيم ولاعب شعرى غاروا وثاروا عليّ وثاروا عليك/ فماذا صنعت لهم يا أبى؟ الفراشات حطت على كتفى/ ومالت علي السنابل، والطير حلق فوق يديّ/ فماذا فعلت أنا يا أبى/ ولماذا أنا؟ أنت سميتنى يوسف، وهم

أوقعوني فى الجب/ واتهموا الذئب/ والذئب أرحم من إخوتى/ أبت!
هل جنيت على أحد عندما قلت أنى: رأيت أحد عشر كوكبا
والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين».

وكانت التهمة أن مرسيل غنى مقطعا من القرآن، وقصدوا الكلمات
الأخيرة من مقطوعة درويش، ولسنا فى مجال الدفاع عن استخدام
مقاطع من آيات القرآن الكريم فى الشعر فذلك ثابت ولا يحتاج إلى
تكرار لكن ما يحتاج تأملا هو تلك الحقيقة : إن الذئب قد يكون
أرحم من إخوتى!

وبالمناسبة فإن مرسيل دخل معركة أخرى فى العام نفسه «٢٠٠٠»
لا ناقة له فيها ولا جمل ولا أغنية، ولكن هذه المرة لحن! وأقصد
تلحينه «ملحمة أناشيد سليمان» بمهرجان بعلبك الثقافى وفيها
مقطع من نشيد الإنشاد!!

كتب كارل هيرفورت فى «دالاس اويزفر» عن مرسيل خليفة أنه
«بوب ديLAN» الشرق الأوسط. ووصفه سكوت الاريك فى «بوسطن
صنداى جلوب» أنه «بييت سيجر» لبنان»، وكتب عنه عدد كبير من
النقاد فى أمريكا بالذات لأنه يذهب كثيراً فى رحلات غنائية إليها
لكن مرسيل قال إنه لا يود أن يصل إلى الغرب عن طريق الغرب
ويقصد أن استخدامه للآلات الغربية الموسيقية جاء لكسر الروتين
وليس بحثا عن جائزة!

...

...

فى أغانى مرسيل لا يوجد وقت للحزن ووقت آخر للفرح، بل كل
الوقت للحزن والفرح معا .. للطلقة والقبلة .. للحجر والبشر ..
للحياة والموت ..

لحظته الغنائية مشحونة بكل الأشياء .. وقليلون هم الذين ينجحون
فى الإمساك بها .. وأغانيه تمسك بها . رغم الجرح فى الشارع
وفى القلب،.. الجرح سجن وأغانى مرسيل تظل .. الحرية !،
وموسيقاه هى الخبز والزهور .. وفى هذا الوقت الخائق الباهت ..
ينسى المرء عقله .. وقلبه يعيش حزينا على قلبه الشهيد إن بقى فيه
عقل ! حتى تأتى مثل تلك الأغانى فتنتقذ القلب من الموت والكذب!

8 الفصل الثامن



قصة حياة حرم السيد «أحمد عبد الجواد»!

«كيف لا أحن إلى
أمينة، والأيام والأحلام والقلوب والأبدى والعيون
والأفكار والنساء لم تعد بعلها... أمينة، ١٩».

ان فى لحظات فاصلة من حياة الناس، يصبح فى داخل كل منهم «مؤرخ وشهيد»، يولد المؤرخ ليقص على التاريخ ما يُنسيه الألم، ويجعله قادراً على الاستمرار، ويموت الشهيد تحت سياط الأيام والآلام، ويظل سعيداً بالافتداء... يقضى فى حب الآخرين، ويحيون بشقائقه، يتعلمون الحب من حب لا يقوله، ويشربون التضحية من همساته وصلواته التى تسرى فى أيامهم دون حروف.

«أُمِينَةُ» التى لا يعرفها أحد، هى «أُمِينَةُ»، التى يعرفها الجميع، فى داخل كل منا لمسة عطر، أو نقطة نور منها، هى نحن، هى «المؤرخ والشهيد»، وهى لم تنجب «فهمى»، «خديجة»، «عائشة».. «كمال»، أو كانت زوجة للسيد «أحمد عبد الجواد»، أو أمّاً لـ «ياسين» الذى لم تنجبه فحسب، ربما كانت أمّاً لأخرين لم تتجبههم، وإن حملت همومهم، وعانت طليقة ولادة نجاحهم، مالت تحت أقدام

فرحها
دائماً مشوب
بالتطير
والقلق، قلق
الخوف من
المجهول
والمستولية
عنه، فهى
كانت تتعير
نفسها
مسئولة
حتى عن
المجهول،

رجال تعطرها بالماء الساخن، ليعفروا نفس الأقدام بتراب شوارع الرزق والثورة والمومسات. تزيل التراب فى كل ليلة لتزرع المودة فى الأيام، تراب السكك لا يعمر طويلاً، لكن كل ذرة تراب مسحتها «أمانة» أو داست عليها، شهدت بأنها كانت «أمانة» فى حبها وأهدافها التى لم تقصدها.

من يقترب منها يدرك حكمة فى الكون لا يصل إليها إلا عارف، بعض حكم الأيام لا يكتبها أحد، يكتبها أناس يعبرون فى الأيام، تبقى مسيرتهم دون أن نعرف سيرتهم، ما أروع أن ندرك السيرة والمسيرة معاً لأحد هؤلاء الناس.

وفى «الثلاثية» المدهشة التى كتبها الأديب الكبير نجيب محفوظ محاولة فريدة لفعل ذلك، فقد أمسك بخيط السحر الذى يربط السيرة بالمسيرة، فنقش على جدار ذاكرتنا منمنمات لا تحتاج إلى روح لتحيا، ولا إلى كلمات لتتطق، هى فى حد ذاتها روح وحياة، نور ونهار، ثورة ١٩١٩، وأجمل قصص الحب، وغفوان العقل والدجل والجهل.

ثلاثية «بين القصرين»، «قصر الشوق»، «السكرية»، لا يمكن الإلمام بها، ومن ذا يجروُ على الإلمام بالأيام والأحلام والأوهام.. معاً؟! لا أحد.. إلا قليلون فى الدنيا، وشخصية واحدة فى الثلاثية، لم تعد الشخصية ولا صانعها فى حاجة إلى شهادة جديدة، نحن الذين فى حاجة لشهادة بأن لنا صلة بتلك الشخصية، التى ولدت كل حياة الثلاثية من رعايتها، ونمت حتى ما شاء لها النمو والحب والمجون والثورة.

كانت «أمنية» محور «الثلاثية» بلا منازع، فلا سلطة ولا علم بقادرين على صنع ما صنعت «أمنية»، كانت تملك الحب، ومنه يولد كل شيء، وكل ما عداها يملك على الأكثر واحداً فقط من كل شيء، لم تنتظر إلى ما في أيديهم، لم تنازع أحداً سلطة ولا قوة ولا علماً، الجميع هم الذين عاشوا من خير يتدقق بين أصابعها لولاه لما بقوا. ولما بقينا.

...

...

...

لن أتحذّر فيما يلي عن ثلاثية نجيب محفوظ، فقط سأنقل نظرة طائر تعب من التحليق فوقها، ولم يجد حضناً أدفأً ليحط فيه، ينام قليلاً ليستأنف الطيران أو المتاهة.. لا فرق.

إنه حضن أم مثل ملايين الأمهات، لست من المحبين لتفسير بعض المعاني لمعانٍ أخرى - يتصورونها - أوسع وأهم، كأن تكون «أمنية» هي مصر، أو الوطن، فبعد أن استرحت في دفء حضنها لأيام ثلاثة - قرأت فيها «الثلاثية» من جديد - استغنيت حتى عن الوطن، كانت هي أفضل منه، فهي في يدي وقلبي، وهو لم يعد هو، لا تحتاج «أمنية» لأن تشبهها بأحد، ولا حتى بالوطن، ليته هو يكون في مثل حانها.

أتوقف فقط عند «أمنية»، الروح والجسد اللذين تبدأ بهما «الثلاثية»،

«أمينة» هي المبتدأ والخبر، سماء «الثلاثية» وأرضها، وما طار طير وارتفع - في الثلاثية أو في غيرها - إلا كما طار وقع في حزن «أمينة» كما وقعت أنا.

لم يصف نجيب محفوظ «أمينة» كثيراً.. فهي فوق الوصف، رغم مهارته وقدرته الفذة على ذلك، بل ترك القارئ يصفها لنفسه بنفسه، فقط نقل صفحات من حياتها بإحكام وشاعرية لا نظير لهما.

ظلمنا «أمينة» كثيراً في أفلامنا وحياتنا وتحليلاتنا، حيث أظهرناها بائسة طوال الوقت، ساذجة، أو كما قال عنها ابنها «كمال»: «أمينة هي الرقة الجاهلة».

لم تكن أبداً بهذا الضعف الذي قد يتصوره البعض، فأحياناً يكون الغضب قلة حيلة، ودائماً يكون الصبر.. أقوى حيلة.

من هنا كان ضعف السيد «أحمد عبد الجواد»، على عكس ما يتبدى من مظهره وصوته و«شخطه» و«شتائمه» في الجميع داخل البيت - وأحياناً - خارجه.

ومن هنا أيضاً جاءت قوة «أمينة»، فهي أرضت غرور الرجال - زوجها ونحن - بمظهرها المطحون، المنكسر، الضعيف، لكن حقيقتها كانت على العكس من ذلك، فتحت الجلد والصوت الضعيف تستيقظ دوماً ولا تنام روحها المشحونة بالعطاء، وسر شخصيتها الذي اسمه: «الواجب».

كان السيد «أحمد عبد الجواد» يشعر بهذا السر خارج البيت فقط، فجاء سلوكه هناك طبيعياً محبوباً من الجميع، إلا أنه كان ينسى

ذلك داخل البيت، ولم يجد علاجاً لهذا النسيان إلا بالكثير من الاستعراض، والصوت العالى الخالى كثيراً من المعانى.

إن «اللين» الذى تحلت به «أمانة» طوال عمرها كان أفضل وسيلة ساعدتها على أداء واجبها، لذلك لم ينازعها أحد سلطتها داخل البيت، وإن تصوروا أنهم سرقوها منها فى خارج.

«الواجب» كلمة ومعنى دخلت به بيت السيد «أحمد عبدالجواد» طفلة، - وزوجة ثانية فى الرابعة عشرة من عمرها - وخرج هو من الدنيا ومن البيت معزراً مكرماً - بعد خمسين عاماً من الزواج بأمانة - بفضل هذا «الواجب»، وإن كانت تلك الكلمة لم ترد على لسانها قط سوى فى «السكرية» بعد أن أسلم السيد «أحمد عبدالجواد» روحه، دون أن يقدر على نطق الشهادتين فنابت عنه فى ذلك وطلبت من ابنها «كمال» الخروج من الحجرة قائلة: «دعنى أقم بالواجب الأخير نحو أببك».

كانت طوال حياتها تتحرك بدافع من هذا السر / الواجب، أو المسئولية، حتى فى آخر أيامها، عندما أصبحت تعيش فى بحيرة هادئة من الأحزان بوفاة ابنها «فهمى»، ثم محنة ابنتها «عائشة» و«خديجة»، وإلى وفاة سيدها «أحمد عبدالجواد» فتمنت فى «مونولوج» يفطر القلب: «ليت الذين حولى يبرأون من حزنهم حتى لا يشغلنى شاغل عن واجب الحزن العميق»!

ولا تحتاج تلك الإشارات إلى تعليق، ربما كان الأوفى أن نعود سريعاً إلى البداية.

فى بيت السيد «أحمد عبدالجواد» تبدأ أحداث «الثلاثية» ولا أجمل من أمينة بطة لتلك البداية، كانت فى الأربعين، متوسطة القامة، تبدو كالنحيفة، ولكن جسمها بض مملى فى حدوده الضيقة، - ويكمل «محفوظ» الوصف - : «وجهها مائل إلى الطول، الجبين دقيق القسما، ذو عينين جميلتين تلوح فيهما نظرة عسلىة حالة، وأنف صغير دقيق يتسع قليلاً عند فتحته، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتها ذقن مدب، وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها شامة سوادها عميق نقى».

ولا يعود محفوظ إلى هذا الوصف أبداً ولا «الثلاثية» إلا عندما يشيخ الوجه، ويحدوب الظهر، ويدب الشيب فى شعرها، فى عمرها الذى يمتد إلى ما يزيد على ستين عاماً، وإن كانت ستبدو ساعتها أكبر من ذلك بنحو عشر سنين، بحسب وصف زوجها لها، وربما كان فى ذلك إشارة إلى ذوبان جسدها فى روح «الثلاثية» وأسرتها، فمهما بلغ جمال الجسد يظل دائماً يموت بالموت أو بالحياة، تماماً كما ماتت أجساد «غوان» وبنات ليل فى حياة السيد «أحمد عبدالجواد».. «جلىة»، «زنوبة»، «أم مريم»، غيرهن... أما الروح فلا يذبل عمرها ولا جمالها مهما شاخ الجسد حزناً على صباه الهارب. منذ بداية «الثلاثية» يظل نجيب محفوظ يلح على وصف منزل السيد «أحمد عبدالجواد»، جدرانه العالية، سلاله، روح من الوحشة تعشعش فى البيت، ليكشف عمق انعزال «أمينة» داخل ما سماه: «القص».

ومن هذا القفص كانت تطل على مشهد يومي لا يتغير، شارع «بين القصرين»، من المشربية ظلت عقوداً تنظر للمشهد ذاته وهي تنتظر سيدها كل ليلة، بعد أن ينهى معاركه وجهاده في ملاعب اللهو والنساء، مشهد تتراءى فيه ليلاً بوابة «حمام السلطان» و«رابعة»، ومأذن تنتظر أذان الفجر، ثم يأتي الصباح ويندد المشهد عن عم «حسين الحلاق»، الحاج «درويش بائع الفول»، «الفولى اللبان»، «بيومى الشربتلى»، و«أبوسريع صاحب المقهى»، مشهد لم يره سيدها إلا عندما اقترب من موته، حياته كانت معظمها خارج البيت، أما داخله - فقط - كان نومه وموته.

كانت «أمينة» بحسب وصف «الثلاثية» تعرف عن عالم الجن أكثر مما تعرف عن عالم الإنس، لسانها دائماً كان لا ينقطع عن ترديد آيات القرآن التي تطرد شر الشياطين، ظلت طوال عمرها مخلصة لتلك العادة.

أما أهم أحلامها، فكانت زيارة مقام سيدنا الحسين، الذى كان على بعد خطوات منها، لكن أوامر السيد «أحمد عبد الجواد» كانت أقوى من أوامر الأحلام.

وعندما استجابت مرة واحدة لحلمها، وزارت المقام، كلفها ذلك طردها - لأول وآخر مرة - من البيت. كان سيدها فى زيارة تتعلق بتجارته إلى بورسعيد، فزين لها «ياسين» و«فهمى» تحقيق حلمها، وذهبت إلى ساحة سيد الشهداء فصدمتها سيارة - وليس سوارس كما جاء فى ثلاثية حسن الإمام - فكسرت رقوتها، ولم تستطع

الكذب على سيدها حين عاد، فصبر عليها ثلاثة أسابيع، وحين شفيت - كم كان رحيماً! - طردها إلى بيت والدتها، ثم أعادها بناءً على رغبة سيدة «أل شوكت»، التي كانت لها مكانة عنده، إذ جاءت لتخطب «عائشة» لابنها.

ومن مفارقات الحياة - المتكررة الجارحة أن «أمينة» استطاعت - فقط بعد انكسار قلبها بوفاة «فهمي» أن تزور الحسين كما تشاء، إذ رق قلب السيد عليها منذ بدء «قصر الشوق» - أو الشوك - فأصبحت تزور الأضرحة الطاهرة في برنامج أسبوعي يبدأ بزيارة الأموات الذين بدأوا بـ «فهمي»، ولم يتوقف عددهم إلى أن انتهت الرواية.. ما يدعو للتأمل هي تلك الآلية العبثية التي تسرى في الأيام.. فكثير من الأمناني لا تتحقق إلا على جثث أفراحنا وأحبائنا.. لماذا لا يحقق الزمن أحلامنا إلا عندما يدرك أننا لم نعد قادرين على الفرح بتحقيقها؟!..

...

...

...

«أسبلت المساكن جفونها، وأقفرت الطرقات إلا.. من نسمة شاردة أو ضوء مصباح مهموم، أما الصمت فقد خلا له الجوفتاه ونشر جناحيه».. هكذا وصف «نجيب محفوظ» حال شارع «بين القصرين» عندما كانت تراه أمينة كل ليلة في انتظار سيدها، رتابة كان وجود «أمينة» يجعل الروح تدب فيها فتتمضي الأيام دون أن تشعر ليلة بالظلم.

الفصل الثامن

مساءً: .. طرقات سيدها على الباب بعد مجلس الأئس، يتبعها نزولها السلم و«اللمبة» فى يدها، تفتح له الباب: «مساء الخير يا أمينة».. كلمة يليها صعود إلى غرفة النوم، تعاونه فى ارتداء ملابس، ينام، مجلس الفطور بطقوسه التى يسبقها العجين، فى حجرة الفرن، كانت أمينة تبدو كل صباح كأنها فى رقصة صوفية، حالة من الوجد غير المفهوم تنتابها وهى تؤدى واجبها فى تغذية العائلة بأنواع الفطائر والحساء، كخادمة كانت ترقص وكنم وجسد وروح كانت تطير فرحاً بإسعاد الآخرين، ولعل ذلك أكثر ما جعل روحها تتطهر - وإن كانت لم تلوث من الأصل - وربما كانت أقرب الأرواح - فى «الثلاثية» - شبيها فى مسيرها بروحها، روح ابنها «فهمى» التى فاضت فى ساحة الواجب أيضاً، أمام بنادق الإنجليز وكان رحيله انكساراً لم تقم بعده قائمة للفرح فى حياة «أمينة» وعائلة السيد «أحمد عبد الجواد» كلها.

تظل أمينة طوال «الثلاثية» شخصية كأنها فى عيني العابر لا تتطور إلا قبل النهاية بقليل، وكان نجيب محفوظ بارعاً فى تكريس تلك الصورة، فهى بتكوينها الروحى والنفسى لم تكن فى حاجة إلى أى تطور، فقد كانت تشبه «دقيقة» الحب التى تولد فى القلب، لا تصغر ولا تكبر، تظل جمرة مشتعلة مهما تكاثر عليها الرماد لا تموت، تشعل القلب والبدن بالبهجة والألم اللذين يشبهان طيفاً جميلاً شجياً كالذى أرخته «أمينة» على طول «الثلاثية» وعرضها.

برغم معلوماتها السياسية البسيطة، إلا أنها كانت تدرك أشياء كثيرة، تعرف أسماء مثل: «سعد زغلول»، والإنجليز مصطفى النحاس والشيعية، فجدها كان على درجة ما من الثقافة تسربت إليها، لكن القوة الأساسية ظلت فى نظرها هى السيد «أحمد عبد الجواد» وليس الإنجليز، قهى عندما رأت عساكر الإنجليز أسفل بيتها قالت: «سأوقظ سى السيد لأقول له»، وفى تعليق «محفوظى» قال صاحب الثلاثية: «كأن السيد يحل مشاكل حياتها ومشاكل بيتها مع الإنجليز».

وفى «السكرية» بعد أن شاخت «أمينة» لم يعجز عقلها عن تقبل كلمة «الشيوعيين» التى تحدث بها «كمال» أمامها وسألته: «شيوعيين يعنى شيعة سيدتنا على؟»، أى لم يصدمها المصطلح ووجدت له تفسيراً من مخزونها الدينى البسيط، ولا تخفى دلالة الربط بين سيدتنا على والشيعية ومحبيها الأسر سيدنا الحسين، ورغم «هلس» ابن زوجها «ياسين» إلا أنه كان ثاقباً - دون قصد - عندما قال: «الحسين شهيد يحب الشهداء»، متندراً بحب زوجة أبيه لآل البيت. وبرغم كل تلك الطاعة والاستشهاد، كانت «أمينة» امرأة ككل النساء والأمهات لا تخلو من مكر لطيف، وتتمتع بروح رقيقة من الطرافة، لكنها لم تصل أبداً حد السخرية.. فعندما تعجب «ياسين» ذات مرة لأن زوجته الأولى «زينب» تركته غاضبة إلى أهلها بعد أن ضبطته يتحرش بخاتمة المنزل قال موجهاً حديثه لـ «أمينة»: «أين هى ستات الأمس؟». ووصف نجيب محفوظ إجابتها على سؤال «ياسين» بقوله:

«لم تمنع أمينة نفسها من مداراة ابتسامه وهى تستمع إليه كواظ وفى ذهنها صورته فوق السطوح أمس مع الجارية».

...

...

كان لـ «أمينة» استراحات ليست كثيرة فى حياتها، أكثرها بالقوة ونادراً ما كانت تستريح بالفعل، الاستراحات التى كانت تنالها بقوتها الروحية تمثلت فى الحلم، بداية من زيارة أضرحة آل البيت، ثم عبر «مونولوجاتها» المؤثرة مع نفسها، خاصة فى «بين القصرين»، أو فى شعورها الصوفى بالراحة حين يتحقق الوصل بمنتهى أمانيتها وهورضا «سى السيد» عنها وعن خدمتها له، أما استراحتها الفعلية فكانت فى نهايات صباها بأحاديثها مع بناتها، خاصة «خديجة» التى ظلت الأقرب إليها خاصة بأجزائها الأخيرة، وكذلك «كمال» عندما كان طفلاً وجدت بعض راحة فى ثرثرتها معه عبر إجاباتها وأسئلته التى كانت تتسم بالبراءة والسذاجة.

أما أجمل الاستراحات فى حياتها وطول الرواية بأجزائها الثلاثة، فكانت ما أسمته «مجلس القهوة»، طوال «بين القصرين» و«قصر الشوق» كان يعقد فى بهاء وبهجة فى الدور الثانى من المنزل، عندما خيم الحزن وانفراط العقد على العائلة من منتصف «قصر الشوق» وفى نهاية «السكرية» بدا كأن المجلس يترنح وهبط الدور الثانى بأكمله إلى الدور الأول، بل هبط الدور الثانى كله نزولاً على اعتلال صحة السيد «أحمد عبدالجواد».

«مجلس القهوة» كان نابضاً بالأعضاء فى مطلع حياة تلك العائلة وكانت سيدته «أمنية» تتوسطه عند مجمرة النار، ويتناول الجميع قهوته مع مغيب الشمس، أعضاؤه فى البداية كانوا: «ياسين»، «فهمى»، «كمال»، «عائشة»، «خديجة».. انفردت أول حبة فى المجلس بوفاة «فهمى»، ومع غياب كل حبة جديدة سواءً بزواج خارج المنزل - أو بغيره - كان فنجان القهوة الذى تتناوله «أمنية» يعوضها ولو لدقائق عن افتقاد الغائب، وربما كان لذلك علاقة بأن يصبح فنجان قهوتها الواحد.. عشرة فناجين عندما لم يتبق معها فى نهاية «السرية» والمجلس سوى «كمال»!

لم تشغل أمينة طوال حياتها سوى بغيرها، ولم تحمل أبداً رغبة أو أمنية سوى زيارتها لآل البيت، فيما عدا ذلك لم تعرف إلا المساعدة - والطم - بتحقيق أمانى أبنائها، أول فرح حقيقى دخل قلبها كان بزواج ابنتها «عائشة»، وإن كان فرحها دائماً مشوباً بالتطير والقلق، قلق الخوف من المجهول والمسئولية عنه، فهى كانت تعتبر نفسها مسئولة حتى عن المجهول!، فكل ما فى داخل البيت من أحياء كان ملكاً حقيقياً لها وإن لم يقر سيدها بذلك، وهى لم تكن يوماً فى حاجة إلى إقراره، كان شعورها الداخلى بأعباء تلك المسئولية لا يفصح لها وقتاً لانتظار ثناء، وعلى حد وصف «نجيب محفوظ» لسير حياة آل «أحمد عبد الجواد»: «.. كان البيت من الناحية السياسية خاضعاً للسيد، ومن الناحية الإدارية الداخلية لأمنية»، ولعل ما جعل سياسة «أحمد عبد الجواد» تستمر هذا العمر

ليس صلاحيتها، وإنما لأنها وجدت إدارة تعرف دورها، ورضيت قانعة بأدائه، فبهذا - دائماً - تنجح وتفشل سياسات البيوت والأوطان.

ويبدو الدور المؤكد لأمنية ليس له علاقة بصوتها المستكين المطمئن، ولكن علاقته بصداه.. صداه الحقيقي الذي يحمل قوة التأثير في أرواح وعقول أبنائها وبناتها، ظلوا دائماً أكثر تميزاً في أداء وظائفهم «فهمي» شهيد، و«كمال» المثقف، وكذلك أحرانهم لم تكن كأحزان أى أحد، كانت كاسرة للقلب والروح، وهو ما بدا أكثر ما يكون عند «أمنية».. وكذلك «عائشة» و«خديجة»، وإن بقي «ياسين» - بمجونه المريض - خير ممثل لفشل سياسة أبيه.

فى طفولتها كانوا يرونها مبروكة، حيث نجت من وباء اجتاح البلد كلها، وفى حياتها كلها لم تعان سوى من مرضين «الخوف» و«الحنن»، حتى أكبر إصابة تعرضت لها - كسر فى الترقوة - كانت بسبب الخوف من سيدها عندما زارت سيدنا الحسين، لم تعرف الاكتئاب ولا الكسل، ربما لأن الإخلاص فى العمل علاج لا مثيل له لكل ألوان الأوجاع والحرمان.

ومن الغريب أن حزنها كان فى جانب منه نوعاً آخر «الخوف»، فحزنها الحقيقي بدأ بوفاة «فهمي»، ولعل ذلك فتح أمامها باب الخوف على بقية أبنائها، وامتد ذلك إلى مرضها الأخير الذى جاء بعد سنة من «الخوف» على إثر الغياب الأبدى لسيدها عن منزله.

...

...

لا أدري لمَ يشدني الحنين إلى «أمينة».. حنين يود لو يصل إلى لحظة البكاء، لكنه لا يستطيع. طوبى لـ «أمينة» بكت قدر ما استطاعت - وأرادت - أن تبكي، أما نحن فالـ «بروثيادين» - عقار مهدئ - حرق كل الدموع في قلوبنا، فلم تعد تجرؤ على النزول من الجفون، وتكتفى بأن تخنقنا كل يوم ببخارها المتصاعد في أرواحنا.. دموعنا أين أنت يا دموعنا؟!.

لا أهتم كثيراً بأسباب الحنين، فبعض الأشياء يقتلها التفكير في أسبابها، لكن للمفكر الفلسطيني «هشام شرابي» رأى آخر في أسباب الحنين إلى الماضي، أشار إليه في الجزء الأول من سيرته الذاتية الأسيرة «الجمر والرماد».. بقوله:

- «إن نزعة العودة إلى الماضي، عند الفرد والجماعة، هي نزعة عميقة متأصلة في النفس، تبرز في حالات الخطر، وفي حالات الوحدة والقلق ويجب اتقاؤها».

.. كيف يمكنني أن أتقى تلك النزعة التي يحذر منها الدكتور شرابي، و«الوحدة» تتوحش، و«القلق» أصبح كوسادة من سكاكين نصحو وننام عليها؟!.. ، كيف لا أحنّ إلى «أمينة»، والأيام والأحلام والقلوب والأيدى والعيون والأفكار والتساء لم تعد بعدها.. «أمينة»؟!

9

الفصل التاسع



شهيد « غنائى » لصالح سالم !

وهما حاولت

لا تستطيع أن تكون إلا نفسك ، !

كل

كريم مهانُ بين قومه ، حكمة يزداد صدقها على
مر العصور .. وفي أيام المطربين كانت أغاني
«النار.. النار..» «في السكة .. في السكة» و«مين سرق
العامود» هي التي تلقى الإقبال والقبلات .. وكان هذا
الرجل وهو مطرب أصيل - لا يلقى إلا قبلات أبنائه فوق
يده في حارة ضيقة بإمبابة!

مأساة هذا الرجل أنه صدق تلك المقولة وعاش بها:

«مهما حاولت لا تستطيع أن تكون إلا نفسك» !

ونفسه كانت كرامة في كرامة في كبرياء، رغم مظهره
الرقيق وكلماته غير الحادة التي تجعلك تستسهله ولا ترى
صعوبة في السيطرة عليه إلا أن تلك النعومة كانت
تخفي تحتها جبلا صلبا استمر صامدا غير متنازل عن
حدثه لمدة ٧٩ عاما ذاق خلالها كل ألوان المعاناة والعذاب
ومات وهو لا يملك إلا نفسه التي حافظ عليها نقية رقيقة
فنانة في زمن يضحي فيه الناس بكل شيء .. وأول
الأشياء وأسهلها .. أنفسهم!

الأحلام

تحتاج

لأشياء

كثيرة جداً

غير

الأحلام

.. للتحقق..

قصة هذا الرجل يحكيها لك وهو يدخن سجائر قليلة، ويرتدى ملابس مكوية بعناية، وعيناه يملؤهما الابتسام، ووجهه مكسو بالرضى الحقيقى إنها قصة توجع القلب ..

قصة أناس يأكلهم الوطن باستمرار لأنهم لم يستطيعوا أن يدركوا المتغيرات القاطنة التى أصبح الوطن نفسه يتقنها .. كان هذا الرجل مقتنعا بأن الصديق قارب كاف ليعبر به الحياة ورغم أن القارب انكسر عند أول موجة إلا أنه ظل يسبح بجسده النحيل وحده فأصبح هذا الوجد « عزيز على القلب».. وما حدث لقلبي عندما سمعت منه قصة حياته!

من حسن حظى ووجع قلبي فى هذه الدنيا أننى قابلت عم إبراهيم الحجار فى حياتى .. قبل رحيله بأسابيع خمسة فى منزله الذى لم يبدله فى الحارة الفقيرة جدا، رغم أن ابنائه عرضوا عليه أن يبدله كما بدلوا هم .. قابلته فى ليلة صيف سبقت واحدة من احتفاله بعيد زواجه السابع والأربعين وقبل شهور من احتفاله بتمام عامه التاسع والسبعين، ولم أشعر على الإطلاق بأنه تجاوز الاعوام السبعة والأربعين ولا السنين التسعة والسبعين، كان كما هو طفلا عجوزا يعيش فى الحقيقة، حقيقية قالها فى آخر كلماته لنا بعد ثلاث ساعات من الكلام والغناء قال :

« أصل ربنا يحبك لما تحب كرامتك يا بابا »

«آه ياعم إبراهيم .. على الجروح التى فتحتها بتلك الكلمات البسيطة
قلتها ومشيت وتركتنا نبحث ! قلتها وأنت لا تدري وربما تدري -
أننا فى زمن لا نعرف فيه أين نحن على وجه الدقة ولا أين كرامتنا
.. فكيف نحبها إذن .. فلم تعد هناك ملامح محددة لها .. اختفت
كل معانيها، وما تراه أنت ياعم إبراهيم كرامة أصبح الناس يرونه
غباء اجتماعيا!!

....

....

لم أكن أتوقع حين قصدت مقابلة الفنان الراحل إبراهيم الحجار أن
يحدث لى هذا التغير الكبير فى بعض أفكارى، وحتى مزاجى
الخاص .. تمنيت أن أقابل رجلا يحترمه الجميع وأنعم عليه الله
بأبناء لهم احترامهم فى ساحة الغناء ولم نسمع عنه إلا كل تقدير ..
وكانت دعوة كريمة من الفنان على الحجار إلى منزل والده، .. لم
أسأل عم إبراهيم سوى سؤالين الأول عن مسيرة حياته والأخير عن
سبب لجوء ثورة يوليو إلى تأسيس فرقة للتراث «أى العهد البائد»
وأقصد فرقة الموسيقى العربية التى انضم إليها منذ تأسيسها وحتى
إحالة للمعاش.. وتولى هو الحديث متدفقا ولم يكن لدى اهتمام إلا
بالنظر إلى هذا الرجل الذى كان بالنسبة لى كائنا هابطا من فضاء
أبى وأمى وأناس انقرضوا وهم أحياء فى مواجهتنا نحن الذين
انقرضنا قبل أن نولد.

طوال الساعات الثلاث التي امضيتها معه كان يبدو نموذجاً للمصري الصميم، الذى يبدو أنه لا يعنى أى شىء يقوله لكنه - بالفعل - يعنى كل شىء يقوله يبدو غير عارف بالسياسة إلا أن كل ما حكاه له علاقة بصميم سياسة هذا البلد من العشرينات وحتى الآن .. يبدو متسامحاً إلا أنه ليس ضعيفاً، ويعرف أن سر قوته هو فى استمراره حياً بصفائه ليموت اعداؤه بضغائنهم وإحساسهم بالذنب.

رغم أنه تحدث عن صلاح سالم إلا أنه لم يذكر أنه كان عضو مجلس قيادة الثورة، وكان يقول دائماً عن الحرب العالمية الثانية «حرب ألمانيا» وتحدث كثيراً عن الستينات وما حدث فيها فنياً إلا أنه لم يذكر اسم جمال عبد الناصر، كان المسئولون الذين ذكرهم فقط محمد حسن الشجاعى ممثل العسكر وثورة يوليو فى الإذاعة وثروت عكاشة الذى أسس فرقة الموسيقى العربية من بين ما أسس من معادل ثقافية فى وقته!

لحظة واحدة رأيت فيها الرجل خلال ساعات ثلاث عرض فيها عذاب حياته وفنه هى التى كان فيها حانقاً وساخطاً، لحظة شعر بعدها بالذنب عندما سألته لماذا لم توافق على أن يلتحق إبنك «على» بمعهد الموسيقى العربية واقترحت عليه أن يدرس الفنون الجميلة.. قال «علشان ما يشوفش العذاب اللى شفته» .. بعدها وقبل أن يكمل الحرف الأخير من الجملة وكأنه ارتكب ذنباً كبيراً بدأ يستغفر الله

وقال «عذاب إيه .. عذاب إيه يا ابراهيم - الحمد لله الحمد لله على كل حال - أستغفر الله !!»

إبراهيم الحجار قيمة موسيقية مصرية كبيرة لا يمكن أن يتجاوزها العارفون بالتاريخ الحديث للموسيقى العربية، لكن لأنه ارتضى قانعا أن يقف فى الصفوف الخلفية ليدفع بالآخرين إلى الأضواء فهو يحتاج لبعض مجهود ليخرجه أحد من تلك الصفوف حتى يراه الناس .. ربما كان يحتاج هذا وإن كان يرفضه وهو بيننا إلا أننا نحن الذين نحتاجه الآن لنكتسب بعض الاحترام لانفسنا من خلال أن نرى بيننا بعض الناس المحترمين!

وُلِدَ إبراهيم الحجار ببني سويف فى ٧ يناير ١٩٢٢ فى شارع جسر البحر القريب من ميدان مولد النبى، وكثيرا ما حضر ليالى هذا المولد، واشترى أحد أصدقائه حصانا من المولد هدية لعل الحجار ما زال يذكرها ..

عاش فى بني سويف حتى بلغ ٢٢ عاما بعدها انتقل للقاهرة للالتحاق بمعهد فؤاد الأول للموسيقى عام ١٩٤٤ وكان عميد المعهد مصطفى بك رضا عازف القانون البارع .

.. منذ بداية التحاقه بالمعهد لفت الأنظار إليه، وكانت المنحة الكبرى إعطاءه ٤٥ دقيقة ليغنى فيها على مسرح المعهد أمام وزير المعارف

عند استلام شهادة الدبلوم، وطوال الوقت كان يحل ضيفا على أبناء عمته فى الجيزة، ولازمته طوال سنوات غربته الطويلة عن أهله فى

بنى سويف عادة البكاء فى لحظات المرض والألم .. لأنه عاش فى ترف الأبوة والأمومة طوال ٢٢ عاما وكانت عائلته معروفة فى بنى سويف لدرجة أن الخطابات كانت ترسل إليه هكذا: «إبراهيم الحجار .. بنى سويف» .. لا رقم شارع أو عمارة أو حى! ويتذكر أنه فى يوم ١٧ نوفمبر من سنة لا يتذكرها امتحن فى الإذاعة بشارع علوى نمره ٥ التى يحل محلها الآن البنك الأهلى، وفى لجنة إمتحان الإذاعة كان مصطفى بك رضا وعبدہ قطر وأحمد بك فهيم مدير عام وزارة المعارف والتعليم العالى ومدحت عاصم «وناس آخرين محترمين قوى» على حد قوله !، وأسمعهم عدة مقامات بدأت بتقاسيم من «الصبا» وانتقل إلى «البياتى» ثم إلى «السيكا» ويتذكر أن مصطفى بك رضا ومحمد فهيم ساعده كثيرا خلال دراسته بالمعهد، إذ كان يمنحه الأول جنيها شهريا من جيبه إضافة إلى ٢ جنيها من المعهد.

....

....

كانت الأيام تلك بالنسبة له تشبه الأحلام حتى جاءت سنة ١٩٥٤ التى لا يتذكر علاقتها بالسياسة ولا بالعهد الثورى الذى دقت ساعته فى الإذاعة . فقط يتذكر اسم محمد حسن الشجاعى الذى شعرت منه بعد كل تلك السنوات التى تكاد تقترب من الخمسين أنه مازال يرهبه ويشعر بغصة منه!، وعلى حد قوله أنه جاء عليه وقت كان يخاف أن يمر من شارع الإذاعة بسبب الشجاعى!

والمعروف أن الشجاعى جاء لينفذ تعليمات ثورة يوليو داخل الإذاعة،
وليجعل الأغاني كلها حيوية وشبابية بمفهوم هذا العصر بمعنى
الانتقال من الوترية وخلافه إلى النحاسيات - وغيرها -

إبراهيم الحجار طبعاً كان شاباً بمفهوم هذا العصر واشهر أغانيه
«عزيز على القلب» غناها عام ١٩٤٨ كانت شبابية جداً إلا أن خلافاً
لم ينته على الإطلاق نشب بينه وبين الشجاعى وكان ذلك سبباً
حقيقياً فى أن إبراهيم ظل قيمة بعيدة عن الشهرة طوال العمر!!

بداية الخلاف... - والبدايات غالباً لا تكون أساساً حقيقياً - كان اسم
الحجار، إذا طلب الشجاعى من عم إبراهيم أن يغير اسم
«الحجار» إلى أى اسم آخر! لكن الرجل رفض بإصرار، لأن
الشجاعى طلب ذلك بإصرار .. وخلال حكاية عم إبراهيم لتلك
القصة بعد كل تلك السنين عرفت كم كان هذا الرجل صلباً وعنيداً
حتى وإن كلفه العناد حياته الفنية!

وبدأت المتاعب منذ ذلك الوقت إذ كان إبراهيم الحجار يستعد
لتسجيل أول شريط له فى ١٩ يناير ١٩٤٥ وفرض عليه الشجاعى
الملحنين عبد العظيم محمد وعزت الجاهلى، وكان الشجاعى يفرض
فى تلك الأيام الملحنين الذين يريدهم بأعينهم على المطربين، تم
تسجيل الشريط إلا أن الشجاعى طلب الإعادة لبعض التعديلات ..
ورغم الإشادة الكبيرة بإبراهيم الحجار فى ذلك الوقت إلا أن ذلك لم

يشفع له وأعاد الحجار التسجيل فكتب الشجاعى فى تعليقه عليه:
 «يعاد لسوء الأداء»، وجن جنون إبراهيم حمودة ساعتها وكان على
 معرفة وثيقة بصوت إبراهيم الحجار .. ويتذكر الرجل بسنواته
 التسعة والسبعين أمامى تلك الدموع التى انهمرت عقب سماعه
 النتيجة وكأنها بالأمس ولعت الدموع شفيفة خلف ابتسامة كلها
 تجاعيد وهو يحكى أنه كاد يجن وفكر فى أن يضرب الشجاعى بـ
 «لواية الحبر» فى وجهه إلا أنه اهتم بالتوضيح أن كل تلك كانت
 هواجس فى داخله منعتة أخلاقه أن يتمادى حتى فى التفكير فيها ..
 «أنا قلت ربنا عايز كده.. الله .. ده رضاه أنا هاغير فى رضاه.. إذا
 كان هو راضى بكده.. الحمد لله».. هذا ما قاله إبراهيم الحجار بعد
 أن ضاع مستقبله فى هذا الوقت!!

كان محمد حسن الشجاعى - فى الأصل - كما يتذكر إبراهيم
 الحجار مفتشاً فى ملاجئ الصعيد وكان فى الوقت نفسه رئيساً
 للفرقة الموسيقية النحاسية فى القصر الملكى الأهم أنه كان لا تحلو
 له جلسات السمر إلا فى منزل الشجاعى، فالرجل لم يكن متزوجاً
 وليس لديه أولاد يحولون بين الضيوف والسمر!!

ويتذكر الحجار أن محمد ماضى والد المطربة حنان ماضى، وكان
 صديقاً له جاءه متهللاً ومهلاً.. «الحق يا إبراهيم أفندى.. ألف
 مبروك.. الشجاعى مات» قالها له فى حديقة المعهد وكان جالساً
 يحتسى كوباً من الشاي وتكرر الحجار وقال له «يا أخى الله يرحمه»

وإن كان ابتسم لأنه فكر للحظة أنه سيعود للإذاعة!

....

....

لم أتعب كثيراً لأعرف كيف كان يعيش هذا الرجل ويصرف على أبنائه فى تلك الظروف المادية والنفسية الصعبة التى عاشها، لأننى أدركت كيف كان يفكر ويخطط أدركت أنه ببساطة لم يكن يخطط كثيراً وكان يثق فى الله وكرمه، وعلى خلفية ذلك انتقل بكل سماحة نفس من الصف الأول أمام الميكروفون كمغن كانت له أغنياته الشهيرة بالإذاعة خلال الاربعينيات إلى مكان بعيد عن الميكروفون كأحد أعضاء الكورال لعدد من المطربين فى الملاهى الليلية، ومن بينهم محمد قنديل الذى كان فى يوم ما أحد أعضاء الكورال خلف إبراهيم الحجار فى الإذاعة!! ومن أكثر الملاهى التى عمل فيها ملهى فتحية محمود «كازينو شهر زاد» الذى مازال موجوداً حتى الآن فى ميدان التوفيقية بشارع الألفى بك!

ولم تخل تلك الأيام من صولات وجولات لعم إبراهيم فى الصعيد، منها إقامته لعدة أشهر فى فيلا نجيب بك الهلالى الذى كان رئيساً للوزراء، حيث دعاه زوج ابنته (فريد بك حماد) للإقامة عنده بالصعيد للغناء.. ويتذكر أنه كان يبدع فى غناء «الجدول» لمحمد عبد الوهاب، فقد كان يحلم بحياة غنائية مثله هو والسنباطى، أى أن يلحن ويغنى لنفسه، لكن الأحلام تحتاج لأشياء كثيرة جداً غير الأحلام لتتحقق.

تعاون إبراهيم خلال تلك الفترة كثيراً مع صديق أحمد أشهر متعهد حفلات لأم كلثوم وعبد الوهاب ويوسف وهبى، وسافر إلى الصعيد وبعض مدن الوجه البحرى ليغنى ولأكل العيش، ومن أطرف المواقف التى ذكرها، كان فى مدينة «الفشن» فى بنى سويف وامتلاً المسرح بالجمهور ومنهم مأمور المركز وفجأة شعر عم إبراهيم بالتهاب فى اللوزتين ولم يستطع الغناء.. فتران البشر هم الفئران فى كل زمان! إذ نشروا شائعة أن المطرب الذى قدم للغناء كان فى جلسة سكر بالأمس ومازال مسطولا ولن يستطيع الغناء ولم يجد المتعهد مخرجاً من ذلك إلا أن يحمل عم إبراهيم إلى المسرح ليجعله يتكلم حتى ينفى تهمة السكر ويوضح أنه مريض.. وبمجرد أن شاهد إبراهيم الحجار الجمهور الذى كان ينتظره ويحب سماعه بدأ يندن ليحرب إن كان سيقدر على الغناء وفتح الله عليه وغنى «الجنودل» التى ظل ممتناً لهما كثيراً لأنها أنقذته من تهمة السكر!

....

....

ولأن الله لا ينسى عبده، وأنه يجعل بعض الأفكار والثورات تكفر عن ذنوبها بنفسها فإن رجل الثورة «الشجاعى» الذى أبعد إبراهيم الحجار عن الإذاعة قد توارى، وظهر رجال آخرون فكروا، فى إقامة فرقة موسيقية لإحياء التراث الموسيقى العربى (فرقة الموسيقى

العربية).. وكان لإبراهيم الحجار صديق اسمه إبراهيم كامل رفعت كتب عدداً من الأغاني لعبدالحليم حافظ فى بداياته، وأخبره بأمر هذه الفرقة وقام أصدقاء إبراهيم بملء الاستمارة، له ومنهم «صديق فتحى شرف» الذى اشترى له طابع التمغة اللازم لاستيفاء الطلب.. «دائماً هناك تمغة إن لم تكن الشجاعى فلا بد أن يكون الرفاعى أو مجرد طابع بوسنة» المهم أن عم إبراهيم تحدد له امتحان يوم ٣٠ مايو ١٩٦٧ قبل النكسة بأيام ستة وللعلم وهو يحكى لي لم يتوقف إطلاقاً عند النكسة بأكثر من ذكر اسمها وإن كان ذلك يعكس عدم اهتمام سياسى إلا أنه قد يعكسه وفقاً لوجهة نظر المصرى «اللماح» الذى لا يجد أى كلام ولا تنظير يصل إلى نتيجة أكبر من هذا الاسم «النكسة»!

امتحان الحجار أمام «عبدالحليم نويرة» مدير الفرقة ومحمدعبد صالحي ود. محمود الحفنى ومدحت عاصم وعبد قطر وكان الامتحان فى دار الأوبرا القديمة التى احترقت وأصبح مكانها - الآن - «چراچ للسيارات»!! وكان جاهزاً للامتحان بـ «ملا الكاسات» و«أصل الغرام» لكنهم قالوا له «لا.. لا شوف حاجة تانية»، واستغرب الرجل لأن الفرقة كانت أصلاً لإحياء التراث!!

وبالطبع تم قبول إبراهيم الحجار بالفرقة التى ظل أحد أهم أعضائها حتى إحالته للمعاش فى عام ١٩٨٢ طوال تلك السنوات لم (يتملحس) لعبدالحليم نويرة على حد قوله، رغم أنه كان هناك من

تمنى أن يحمل له الشنطة ويمسح له الجاكت طمعاً فى صولو
 «غنائى»، إلا أن عم إبراهيم لم يكن يتطلع إلا للاستمرار بكرامته
 فتحمل تاريخاً طويلاً من المعاناة رضى خلاله بالمقسوم لأجل أن
 يربى أبناءه ويوفر لهم الطعام ويتذكر أن المطرب الشهير عباس
 البليدى قابله فى إحدى المرات ولم يكن قد التقى به منذ سنوات
 وسأله: أنت فىن إبراهيم من زمان؟ بتشتغل إيه دلوقت؟ فقال له عم
 إبراهيم: مساعد مطرب والحمد لله!! وكان ساعتها يعمل فى
 الكورال خلف عدد من المطربين!

ومن فرقة الموسيقى العربية وإحالاته إلى المعاش انتقل للعمل فى
 أكاديمية الفنون وتعلم على يديه عشرات المطربين والمطربات، ليس
 مهماً ذكر أسمائهم، المهم أنه كان معلمهم وحتى آخر يوم وقبل
 وفاته بأيام كان قادراً على الغناء الجميل، وبنفسى استمعت إليه قبل
 وفاته بأسابيع يغنى أدواراً رائعة قد لا يحفظها فى مصر الآن
 سواء، وختمها بأجمل أغانيه «عزيز على القلب».

وإذا لم يكن الرجل العزيز على القلب قد نال حظه من الشهرة
 بالغناء إلا أنه نال حظه كاملاً من الشهرة بالإنسانية.. فهو نموذج
 للإنسان بكل معانيه من صدق ونقاء وطفولة إلى الحد الذى جعل
 ابنه الفنان على الحجار يداعبه ونحن معه.. «إيه يا بابا.. هو أنا
 اللى أبوك ولا إيه» من فرط ما طرحه الرجل علينا من طفولة وامتنان
 لأبنائه أحمد وعلى ورأفت.. وسمعته يقول بكل فخر وود ونظرة للزمن

العدو اللدود.. «ربنا أكرمنا بأولادنا.. الناس معرفتنيش إلا بعلى الحجار، الحمد لله.. الحمد لله..» شعرت أن للرجل ثأراً مع الزمن تخلص من كثير منه بما منحه الله من موهبة لأبنائه وشهرة أكثر لأحدهم وهو «علي».. وتخلص مما تبقى بهذا الصفاء الذي تمتع به حتى آخر يوم في حياته.

.....>

.....>

> ومن قبل أن أعرف بوفاة عم إبراهيم ومنذ تركت باب بيته المشحون بالشجن الصادق والذكريات.. من قبلها وأنا أفكر في هذه النماذج التي يمثلها والتي ترحل وسترحل وتتركنا بلا براءة ولانقاء.. فكرت في طلبه من المصور الذي التقط لنا بعض الصور.. ممكن تجيب صورة علشان «علي» فيها! ما كل تلك البراءة يا عم إبراهيم.. ممكن إيه بس!!

تعالى واحنا نعطى لك آلاف الصور! صور لا قيمة لها إلا لأنك وأمثالك تمنحون لها الروح والطعم ورائحة الورد.

إننى أفكر كثيراً في كل تلك الأيام والأحلام.. الصخب والعنف.. المرح والفرح.. الأفعال والأقوال.. المؤامرات والصراعات الصغيرة والنساء.. الموسيقى والحقيقة.. الأعمار والأطوار.. ما الذى نفعله

بأنفسنا وبالأخرين؟ وما كل تلك المعاناة ليل نهار التى تنتهى بأن نقدم كل شئ على طبق من لحم ودم دفعنا فيهما كل العمر إلى ذلك

الذى يقف فى نهاية كل طريق واسمه: «الموت»! كل طريق لا يؤدي
إلا إليه وكل نهاية لا تحمل اسما سواه!
بعد كل ما رأيت.. وكل الأحبة الذين ذهبوا إليه وسيذهبون لم أعد
أملك إلا أن أحبه وأنتظر لقاءه بكل شوق وابتهاال بأن يكون هذا
اليوم قريبا جميلاً لأشعر ولو لمرة واحدة بأننى دخلت بابا حقيقيا،
حتى وإن كان يؤدي إلى عالم غير حقيقى.. فلم يعد سوى هذا الباب
حقيقة لا تقبل الشك فى هذا الزمن المشكوك فيه وفى كل ما يحمله
ويقدمه وينتجه!.. هنيئاً لك يا عم إبراهيم بحياتك التى أخذت منها
حلاوتك وتركت لنا مرارتها، وبمماتك الذى أوجع قلوب كل من أحبوا
الجمال والحقيقة... يا «عزيز على القلب» .

10 الفصل العاشر



من يعرف: روح الحياة أبكار السقاف!

، لا تتوحش الأيام

إلا عندما يتشابه الناس... ويصبحون قطعياً.. وزحام

ولا أحد، كما كان يراهم المتنبي،

أصعب أن تكون مختلفا في هذا الزمان..

ما

وفي أى زمان!

وما أقسى أن تجرؤ على فعل ذلك؟..

آلاف المشائق والطلاقات جاهزه لرأسك في الحاضر

والمستقبل إذا جرؤت!

فالاختلاف يؤرق القطيع، ويقض مضاجع خلدت إلى

العفن والاستسهال .

وتلك الورقة التى بين أيدينا الآن خير شاهد على ذلك

انها، ورقة مبللة بالدموع والآلام.. آلام الغربة وضياح

الحقوق، وقتل الإبدا ع بالصمت والسكوت عنه. ما أصعب

أن تكون جريمتك أنك بحت.. بالمسكوت عنه!

إنها ورقة تشبه عرق الذهب وسط تلال التراب في

الجبال البعيدة.. ورقة لم أتصور أبدا- من فرط إدهاشها

- لى- أنها حقيقية.. ولم أدرك حتى الآن كيف ضاعت كل

تلك السنين من عمر الوطن والفكر والتاريخ.

كانت فاتنة

ولم يحتفل

«المقائد»

أكثر من

(دقائق،

حتى دعا

نفسه على

فتجان شأى

فى منزل

أبكار

ورقة أ بكر السقاف (١٩١٣-١٩٨٩) تدين الكثيرين وتكتب المجد لعقل واحد فقط... أثر أن يكون مختلفا وأن يفتح أمام القطيع آفاقا أوسع فكان جزاؤه الإهمال والاعتقال داخل أسوار الصمت!.

تلك السيدة تشبه أسطورة إغريقية مؤكدة.. حيث ظلت طوال سنوات عمرها مقتنعة بأشياء ربما يراها كثيرون مضحكة. اقتنعت بأن الكتابة كل شيء، وأن العقل جدار الروح والحياة والفكر يصلح لأن يكون مهنة في بطاقتها الشخصية!.

قليلة هي الكتابات - التي عثرت عليها بصعوبة - عنها.. إلا أنها تكفي وزيادة.. من بينها مثلا برقية من العقاد الذي بعث إليها يقول «الأستاذة أ بكر السقاف ٢٩ ش حسن صبرى الدور السابع الزمالك: هداياك من ثمرات الفكر والروض تحيى الربيع وتجدد الميلاد.. العقاد».

وذلك ردا على كتبها التي أهدته إياها فى عيد ميلاده.. والاسماء كثيرة تلك التى عرفتها وكتبت أ بكر عنها خلال الأربعينيات والخمسينيات والستينيات.

ثم الأهم من كل ذلك تلك الكتب العشرة التى أبدعتها بكل عمق وتجديد وفى مقدمتها سفر ضخم صدر فى نهاية الخمسينيات فى ١٧٤٥ صفحة من القطع الكبير بعنوان: «نحو آفاق أوسع» وتناول قصة الدين عبر التاريخ، وعبر جميع الحضارات الإنسانية الكبرى وأحدث انقلابا فى عقل كل من قرأه ، وكتب عنه أحمد الصاوى

محمد فى يومياته بالأخبار يقول: «إن هذه الكاتبة العظيمة التى قرأت ألف كتاب وكتاب لتضع كتابها «نحو أفاق أوسع» جديرة هى نفسها بدرس حياتها، حقا إن شخصية أباكار السقاف جديرة بالبحث والتأمل جدارة مؤلفها الضخم».

وليس هذا هو الكتاب الوحيد وإن كان الأهم فهناك كتب أخرى لاكتفى بالاستدلال عليها من عناوينها لأن تحت العنوان تحليلات عميقة وابتكارات جديدة لم يسبقها إليها أحد وهى:

« محمد.. النبی»، «إسرائيل و الأرض الموعودة»- أهدته للعقاد وأصدرته عام ١٩٧٣- وقدمت فيه أفكارا جريئة وجديدة حول قصة إسرائيل قديما وفى العديد من الكتابات «ودحضت كل الآراء القائلة بوعدها بفلسطين وأرض الميعاد. «النبى موسى».. وكانت أول من قدم أفكارا فى تلك الدائرة الخطرة وقبل كل الكتابات الحديثة المنتشرة الآن حول تلك النقطة دون الإشارة إلى أباكار التى انتهت من مؤلفها هذا فى أواسط الستينيات، من خلال حصولها كأول سيدة على منحة تفرغ لإنجاز هذا الكتاب.

-«السهروردى»-

-«الحلاج»-

-«همسة فى أذن اسرائيل»- كتبتة بالإنجليزية

-«الليل والقلم»- وسبقت به الكثيرين فى كتابة الشعر المنثور إن

لم تكن بهذا العمل أول من من كتبتة-!

كنت أود أن أنقل لكم كل هذه الكتب كاملة لتروا بعيونكم تلك الأفكار المتجاوزة زمنها وجنسها كامرأة جميلة، لا يتوقع منها أحد كل هذا العمق، وكان ذلك مفاجئاً للعقاد نفسه حيث كان يجلس يوماً، أوائل الستينيات داخل «مكتبة الأنجلو».. وذهبت «أبكار» إلى هناك لتسأل عن بروفات كتابها العمدة... «نحو آفاق أوسع»، والتقاها «صبحى جريس» صاحب الدار الذى احتضن كتابها فى وقت رفضه فيه كثيرون من الناشرين نظراً لجرأته.. قابلها بترحاب شديد وقال لها «جئت فى وقتك.. تعالى» ودخلت معه إلى مكتبه وكان «العقاد» جالسا وسبق له مراجعة بروفات كتابتها وما أن قدمها له «صبحى جريس» حتى هب «العقاد» واقفا بقامته الطويلة وقال: أنت أبكار.. أنت اللى كتبت هذا الكتاب، «قالت... نعم» .. فقال «لا.. بس أنت جميلة قوى يا أبكار»!

وبالفعل كانت فاتنة ولم يحتمل «العقاد» أكثر من (دقائق، حتى دعا نفسه على فنجان شاي فى منزل أبكار وشقيقتها الفنانة «ضياء السقاف» التى تتذكر كل شىء رغم سنوات عمرها الـ (٨٣) قابلتها فى شتاء عام ٢٠٠٠ بالإسكندرية بعد أن عرفنى إليها الشاعر الصديق مهدي مصطفى ، حافظ تراث أبكار ، وحكت كل شىء بحيوية أحسدها عليها فى شقتها الفسيحة التى تصعد إليها كأنك فى طريقك إلى السماء بعيدا عن ضيق الأرض وناسها.. ذهبت إليها خلف كلية التجارة بالشاطبي.. منزل يليق بذكرياتها دخلت

وخرجت ولم أتذكر أى شىء سوى أبكار السقاف التى احتلت لوحاتها وتمثيلها كل أركان الشقة.. شقة ستغادرها ضياء حالا لأنها مؤجرة وستعود صاحبته من كندا، ولا تعيش ضياء إلا على ذكريات أبكار توأم روحها وأيامها.. أيام جميلة بدأتها معى بالحكايات منذ البداية.

والبداية فى حياة تلك العائلة ومفكرتها الكبيرة أبكار تشبه النهاية.. حياة تمتطى القلق وتدمن الترحال.. فأبوها كان أحد كبار السياسيين فى اليمن منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى بدايات القرن العشرين.. ولا تحب «ضياء» الآن الحديث عن عائلة السقاف كثيرا، ربما لغصة فى ذاكرتها وحلقها الا إنها قالت إن أباهما قدم إلى مصر من اليمن، والتقى بوالدتها ذات الأصل السوري/ التركى فى القاهرة، وتزوجا وكان دائم الترحال إلى اليمن ولا يمكث فى مصر سوى شهور قليلة.. تتذكر أن والدتها كانت تقول للخدم كلما هموا بفتح حقائب سفر الوالد لاتفتحوها كلها، تكفى الحقيبة الصغرى واركبوا الباقي لانه أكيد سيسافر خلال يومين!

كانت للوالد اهتمامات سياسية لا تعرفها ضياء بالضبط إلا أن الواضح أنه كان مشاركا فى خطط للحكم تشمل اليمن والحجاز، وقد يصل الأمر إلى «برقة» حيث وافق بترحاب على خطبة أبكار إلى أمير برقة الذى أصبح فيما بعد الملك إدريس السنوسى!

روح الحياة أبكار محمد سعيد السقاف ولدت فى ١٤ يناير ١٩١٣ وعاشت طفولة تليق بأميرة داخل فيلا كبيرة فى شارع كفر الزيات بمصر الجديدة.. ولها من الأشقاء: ضياء ومصطفى الذى كان سببا فى انتقال العائلة إلى الاسكندرية، حيث كان يدرس فى «فيكتوريا كوليج»، درس الاقتصاد وسافر إلى الخارج يكمل تعليمه وهو الآن اقتصادى كبير فى هونج كونج ويراسل ضياء من وقت لآخر.. وكانت الإقامة فى الاسكندرية بمنطقة تفتيش السيوف.. تتذكر «ضياء» أن الفيلا التى أقاموا فيها كانت تشبه بيتا صغيرا فى البرارى وفيه بدأت تتفتح عيون أبكار على الحياة والفكر والحب الذى لم تلق فيه حظا حسنا على الإطلاق طوال حياتها!

كانت تلك الفترة عند نهاية العشرينيات إلى أن جاء أحد الايام عام ١٩٢٧ وإذا بوالدها يخبر والدتها أن ضيفا مهما سيحضر للفيلا.. أعدوا كل شئ يليق باستقباله.. فاذا هو الملك «ادريس السنوسى»- وكان لايزال أميرا- وخرج بعد تناول العشاء من الفيلا وسط ترحيب شديد من والد «أبكار» الذى أخبرها أنه وافق على خطبتها من الأمير !!

وكانت صاعقة للأم التى لم يدر بخلدها سوى أن ابنتها ستغيب عنها بالانتقال إلى ليبيا.. وممر عام واحد فقط فى نهايته كان الأمير ووالد أبكار يجلسان فى مكتبه وكل الاسرة تسمع صوتهما العالى دون أن يتبين أحد سبب الخلاف وخرج الأمير مكفهرًا وسط

ابتسامات أبكار وضياء والدتهما فرحا بفسخ الخطوبة.. وقد كان!
ثم فى عام ١٩٣٥ عاد «مصطفى الخربوطلى» بشهادة الدكتوراه
من باريس، وكانت تربطه صلة قرابة بأبكار التى كانت تحبه،
وتزوجته وكانت غاية فى السعادة الا أنها لم تدم إلا لثلاثة شهور،
وفى نهاية إحدى لياليها شعر «مصطفى» بمغص حاد وتم نقله
للمستشفى، ومكث به يومين وتوفى بسبب انفجار الزائدة الودية..
وصفت «ضياء» تلك الحادثة وصفا كلاسيكيا مؤثرا.. وأسمتها
«ضربة القدر» وبالفعل كان قدر أبكار مع تلك الضربة مغيرا لانها
كانت بداية اتجاهها للقراءة بعمق.

وكانت أبكار قد تخرجت فى مدرسة فرنسية عريقة هى «الساكر
كور» "COLLEGE" SACRECOEUR، وكانت تتقن الفرنسية بالطبع، إلا
أنها كانت مقتنعة دوما بأن الانجليزية هى أساس أى ثقافة حديثة،
فبدأت فى تعلمها والقراءة بنهم باللغات الثلاث العربية والانجليزية
والفرنسية، وكانت هى وأختها ضياء فريق عمل متكامل كورشة
قراءة، وتغيرت حياة أبكار تماما وبدأت عليها ملامح جدية منذ
رفضت ثانى أيام وفاة مصطفى أن «يولول» أحد عليه!

كانت تقرأ فى كل شئ وبخاصة الطب والفلك، أما الأساس
فكان دائما الفلسفة والكتب السماوية الثلاثة، وتعمقت فى دراسة
التوراة ويوضح ذلك بجلاء الجزء الخاص بالدين عند العبريين من
كتابها الخطير.. (نحو آفاق أوسع) ..

وبالتوازي جاء اهتمامها بتاريخ مصر القديمة وتاريخ الصين
والعراق القديمة أيضا وكانت تسيّر بمنهجية شديدة خلال تلك
الفترة، حيث كونت أرضية حاشدة من الأفكار والثقافات .

ثم جاءت مرحلة تالية عند انتقالها للقاهرة من خلال علاقات مع
الأثرى الكبير محرم كمال ووكيل الأزهر الشيخ محمود أبو العيون
ثم العقاد.. الذين أمدوها بالحوار والمراجع والإعجاب حول الكثير
من إنتاجها الفكرى الذى سيظهر فيما بعد.

ومازلت مع أبكار - عبر حديث شقيقتها- فى الاسكندرية فى
تفتيش السيوف الذى اختفى بالطبع وبقيت عشوائيات كالسيوف
مكانه الآن ليكون الاسم على مسمى كما هو حال كثير من الأفكار
والأشخاص فى هذا الزمان. أما فى زمان أبكار فكان مكان
التفتيش هادئا داخل تلك الفيلا التى يقطنها آل السقاف، ولم تعرف
أبكار خلال تلك الفترة غير القراءة والكتابة، وكانت تهرع كل يوم
نحو الورقة والقلم كأنها نسيت صلاة أو واجبا.. تعودت أن تكتب
كل شئ، ولم تكن تعرف شيئا عن النشر وفجأة جاءت فكرة هذا
الكتاب - كما تقول ضياء- كتاب «نحو آفاق أوسع»، إلا أن ضياء
تقول ذلك الآن بعفوية وعلى قدر اتساع الذاكرة، لكن الواضح من
خلال عشرات الكتب القديمة التى اطلعت عليها وتحمل خطوطا بقلم
أبكار تحت فقرات معينة وهوامش واستطرادات داخل تلك الكتب
التراثية العميقة منذ الاربعينيات.. من الواضح أن ذلك صنعها
وصنع كتابتها تراكما وليس فجأة!

لم أصدق نفسي وأنا اطالع تلك الكتب القديمة الخاصة بها، وإدراكها المبكر جدا لخطورة السياسة وعلاقتها بالدين وانفجار إسرائيل في منطقتنا ، وأزعم أنها من أهم أوائل الذين تنبهوا لخطورة اليهود بشكل عام . بالطبع لستم مجبرين على تصديقي.. إلا إذا قرأتم كتبها التي لا إذا لم أفهم لماذا تم ذبحها بتلك القسوة التي يبدو أننا أصحاب حضارة في ممارستها مع كل موهوب ومختلف.. واعذروني لتلك الاستطرادات التي تقفز على لساني وهي ستتكرر لأن كل سطور حياة أبقار تكشف عن مأساة حقيقية، لم تعان هي منها إلا بقدر أقل مما نعانيه وسنعانيه نحن، إذا أبقينا على آلية وأد أفكار المختلفين أحياء وأمواتا!.

أعود إلى مسيرة حياتها وتحديدًا عند نهاية أربعينيات القرن الماضي، بدأت أبقار في وضع الخطوط الأساسية لكتابتها الكبير «نحو أفاق أوسع»، وظلت تعيد ما كتبت وتكتب من جديد لمدة لم تقل عن عشر سنوات... وفي نهايتها انتقلت وشقيقتها إلى القاهرة، وبدأت هناك حياة جديدة، وتزوجت عام ١٩٦٠ من مصطفى يسين - وهو تركي الأصل - لمدة ٣ سنوات توفي بعدها!! وأثناء تلك السنوات كانت مشغولة بطباعة كتابها الذي رفضه كثير من دور النشر نظرا لجرأة أفكاره حتى وافق على طباعته صاحب مكتبة الأنجلو صبحي جريس، وصدر جزءان فقط والجزء الثالث قيل إنه صوبر إلا أن

النسخة الموجودة فى أدراج ضياء الآن عليها خاتم يصرح بالنشر
قالت إنهم حصلوا عليه من الرقابة التى كانت موجودة بمكتب ملحق
بقصر عابدين.

الملاحظ أن أفكار كانت تهرب من الأفاق الضيقة دائما نحو أفاق
أوسع، فهى بدأت تأليف الكتاب أثناء الحرب العالمية الثانية، وبعدها
جرت مياه كثيرة تحت جسر السياسة فى مصر، إلا أنها كانت دوما
بعيدا عن أفق السياسة الضيق، ربما لحساسية وضعها كيميائية
الأصل فضلا عن الأحداث التى لاحقت والدها حيث تم تحديد
إقامته فى اليمن وانقطعت زيارته عن مصر منذ نهاية الأربعينيات
وتم تأمين كل ممتلكات عائلتها- منها ٤٠٠ فدان من مزارع البن-
وتغيرت أوضاعها المالية إلا أنها ظلت دوما مثل خيط من الـ
«ستيل» كما تصفها شقيقتها ضياء!

وإقامة أبكار فى القاهرة كانت فى فيلا تشبه فيلا السيوف
بالاسكندرية، أقامت هى وشقيقتها عند ترعة المريوطية بالهرم،
وكانت تلك المنطقة غاية فى الهدوء بالطبع قبل هجوم عصر
الميكروياص.. وليس أجمل من كلمات أحمد الصاوى محمد التى
تصف لنا أجواء تلك الفيلا وأبكار وحياتها هى وشقيقتها حيث كتب
فى يومياته بالأخبار:

«فى صباحية جميلة مشرقة من أيام شتاء القاهرة البديع اتجهنا
إلى شارع الهرم فى ذلك البيت الاحمر المكون من ثلاثة أدوار

والواقع على ناحية ترعة المربوطية الى يمين المتجه للأهرام.. وكان المطرب محمد عبد الوهاب يسكن فى يوم ما فى دوره الارضى.. وصعدنا بيتا بلا مصعد، وبخلنا إلى استوديو تشعر لأول وهلة فيه أنك فى بيت أحد أولئك الفنانين الذين عرفناهم فى شبابنا فى باريس، لكن بيت الهرم كان لحسن الطالع يجمع بين الفن والفكر ولم تكن الآنستان- يقصد أبنكار وضياء- من عوانس الحملة الفرنسية ولا أدري لماذا كان هذا ظنى اللهم الا عما أصابنى أيام الشباب فى باريس، فقد حدث أن كنت أسير مع صديقى الدكتور صالح بكتاش المحامى فى حي مونبارناس فرأينا لافتة (غرفة مفروشة) على عمارة وجيهة، فصعدنا وإذا بباب الشقة يفتح لنا عن أثاث تكفى لمحة منه لتذهل العقل من أناقته، وانشرحت صدورنا لسكنى هذا البيت لكن التى فتحت لنا الباب كانت سيدة كبيرة فى السن، يمكن بلا مبالغة أن تكون بين الخامسة والسبعين والثمانين من العمر فاذا بها تبسم بعد أن ناديناها...«مدام» ويادرت إلى تصحيح كلمتنا فهى «مدموازيل» تم قالت لنا فى رقة:

- انتظرا حتى أنادى ماما!!

وما أن استدارت حتى جرينا إلى الشارع (وعشرة مايجيبيو رجلينا).. أما فى شارع الهرم فقد خرجت علينا صبيتان فى ريق العمر تتصوع منهما الأنوثة والحشمة والرقه ودمائة الترحيب... كانت أبنكار وهى أكبر قليلا من أختها هى الأدبية الفيلسوفة وكانت

بجمالها تذهل العقل لانه جمال شائق رائق عجيب، فهي طويلة القامة، نحيفة، ممشوقة القد، ناصعة البشرة إلى حد مدهش، شفاف... لكن هذا كله يتحول ويتركز ليكون إطارا رائعا لعينين نجلاوين أكبر مما كنا نعهد وأشد عمقا وفيهما ما لأدري وصفه إلا بأنه تعبير عن حزن كظيم..»

وينقل الصاوى فقرة كاملة من مقدمة كتابها «نحو آفاق اوسع» ننقلها نحن أيضا ونقول فيها: «إن هذا الكتاب مجهود فرد ومجهود الفرد أبدا إلى الكمال فى حاجة ما بلغ الكمال فى الكون شىء، فكل شىء نحو الكمال يهدف فى كون نفسه نحو الكمال هادف.. مثلنا فى الحياة كمثل سائر نحو أفق يظنه النهاية وقط لن ينتهى إلى النهاية، فليست هناك نهاية تبلغ، فإن هو إلا أفق، وإن هى إلا آفاق تطوى فتنتشر بطيها آفاق وأبدا منها فى اتساع تتسع الآفاق .. من صور الكمال «المعرفة» صورة نحوها هادفا اتجه الإنسان منذ أن أشرق على صفحة الوجود له وجود حفر اتجاهه نحوها، على رمال الزمن، خطى امتدت إلى خطوات وخطوات، إلما قد ظنه الهدف سار فأدرك، ولكنه ليدرك إنه لم يدرك ما قد ابتغى له إدراكا فما أشرف على الأفق إلا واستشرق آفاقا أبدا فى اتساع تتسع من الأرجاء.

وتقول فى تمهيدها للكتاب ... «إن الوجود بيدا! .. بيدا وعليها الحياة تمر مر الظلال! ظواهر تتعاقب - صور تمحى - مظاهر تظهر لتختفى ولا شىء إلا اللاشيئية يعير - لا شىء إلا وفى تلاش

يتلاشى - لاشئ له حقيقة فى الوجود فى هذا البداء التى يحدها
مأمن ومستقبل وكل سارب كالسراب، والسراب .. وهم ! ومن ثم
فالوجود وجود تصورى والكون كون وهمى سرايى .. أى شئ من
ثم فى هذا الوجود التصورى والكون الوهمى والسرايى ..
الحقيقة؟!.

الجواب إن الشئ الحقيقى الوحيد فى هذا الكون هو .. النفس
.. النفس التى أدركت أن الوجود تصورى والكون وهمى .. إن
النفس قبس من «نفس»، قبس من نفس كبرى هو ما نحن هى ما
عنه يبحث العقل ويسمىها الإله».

أما عندما نتحدث هى عن نفسها ومشاريعها فتكون أكثر بساطة
كما فى تلك الإجابة عن أسئلة فى حوار معها نشرته «آخر ساعة»
فى يوليو ١٩٦٢ بمناسبة حصولها على منحة التفرغ كسيدة واحدة
مع ثلاثة رجال فقط من بين ٢٠٠ شخص تقدموا للمنحة ونص
بعض فقرات الحوار كالتالى:

« ما هى أهدافك من تأليف كتاب موسى، هل لك أن تحديدها
باختصار؟.

قالت : سأعرض لتاريخ موسى تحت ضوء العلم الحديث،
وسيكون الكتاب من ثلاث مراحل، الأولى العهد السابق لموسى،
مصر القديمة الترية التى ظهر فيها موسى وستتناول المرحلة الثانية
أعمال موسى من خلال المصادر التاريخية والأسفار الخمسة

المنسوبة إليه والأثر الذي تركه والمشكلات السياسية التي نبعت فيما بعد التي يعانيتها - حتى الآن..

طبعاً كانت أفكار تتحدث سنة ١٩٦٢ ومازال كلامها صالحاً بالطبع ولسنوات لا يعلمها إلا الله» .. شرقنا وهى مشكلة إسرائيل . والمرحلة النهائية : تحليل فكرة الأرض الموعودة وكيف تطورت مثل تلك الفكرة .

> وقلت لأبكار : حياتك العاطفية كيف تمضى خلال فترة التأليف؟

- قالت الحياة العاطفية تصبح مشكلة لو لم يتكلم العقل فيها، فإذا تحكم أصبحت الحياة سيمفونية جميلة».

وخرجت كتابات أبكار من بين يديها إلا أنها لم تر النور، خاصة كتاب «موسى»، ولعل الخطوط العريضة لأفكارها من الكلمات القصيرة التي نقلناها تضع أول قنديل فى هذا النفق المظلم الذى ألقيناها فيه .. إنها تتحدث عن اليهود وإسرائيل، والنفوس كأصل لكل الكون والأشياء وأنها - أى النفس - قبس من الله - فهل كان لابد أن تختفى كل كتاباتها لأنها جميلة .. ولأنها اختارت توقيتاً خاطئاً على اعتبار أن الحديث الآن عن الإسرائيليات والدين أصبح اختراعاً .. هل كان مطلوباً أن تموت بالصمت عنها لتتسع دائرة الضوء والشهرة لأسماء أخرى رجالاً ثم نساء؟؟.

ما يحيرنى أن كثيرين شهدوا لها بالعمق وفى مقدمتهم العقاد

الذى لازمته لفترة طويلة، وكان دائم الزيارة لها مع شقيقتها وشاهدت صورا له معها تدل على عمق العلاقة فضلا عن الإهداءات المتبادلة فوق الكتب بينهما ... وليس العقاد وحده بل هناك قائمة طويلة من الأسماء التى كان تسعى إليها وتجلس محاوره ومعجبة ومتأكدة من أهمية ما تملكه من فكر ... وعقل .. قائمة فيها عزيز أباظة، إبراهيم ناجى، وتيمور، صلاح عبد الصبور، أنيس منصور، محفوظ الأنصارى ... استغرب لماذا نسوها .. وكيف؟ أما الأهم فهو غيابها المدهش حتى عند من استفادوا منها فى كتاباتهم.

وخلال جولاتى بين أوراقها التى تشبه حضورها رقة وبهاء، شعرت بأننى على شفا كنز نادر .. وفيه الخطابات والثناء والكلمات التى يختلط فيها الوله بالإعجاب .. فقد كانت أبكار خليطا خاصا جدا من الجمال والوعى وقوة الإدارة، وهى ملامح من النادر أن تجتمع فى امرأة ومن النادر أن تصدق بأنها كلها جميعا - كل تلك الملامح - حقيقة وأصيلة فيها!.

وأستغربُ جدا لماذا لم تنل التقدير إلا بهذا الشكل السرى فقط فوق أوراق الخطابات التى حملتها بين يدي صفراء شامخة تشبه رفات العظماء داخل التوابيت، منها هذا الكتاب على ورق لونه «تركواز» مكتوب فى أعلاه إلى اليمين «المتحف المصرى - قصر النيل - مصر» .. فى ٣ / ٤ / ١٩٤٥ .. والخطاب من الأثرى الكبير محرم كمال وكان وقتها أمين المتحف المصرى وكتب لها مايلى.

سيدتى ..

«كنت بالأمس فى معرض القاهرة للفنون الجميلة بسرأى الجمعية الزراعية فرأيت تمثالك الذى وقفت أمامه معجبا، وعند ذلك تذكرت خطك وأسئلتك التى كنت تسألينها دائما والتى خطت على التمثال، ما الإنسان وما الوجود وما الحياة، وعند ذلك عاد بى الفكر إلى الماضى فعولت إلى الكتابة إليك، وكل ما أرجوه هو أن تؤكد لك الأثر الذى تركته فى نفسى ذكرياتك الدائمة التى أثارها فى رؤىة تمثالك البديع».

وكتب لها أيضا .. «أنستى العريزة .. أشكرك شكرا جما على خطابك الممتع وأعتذر لك مرة أخرى عن تأخرى فى الرد وفى الواقع كانت خطاباتك الرقيقة المليئة بشتى الأفكار القيمة هى بمثابة الماء العذب الفياض يجده المسافر فى صحراء جربة طوال السير بعد أن الهبه العطش وأتعب جسمه طوال السير والترحال .. ومن كان يظن أن باريس .. باريس الجميلة بكل ما فيها من فن وجمال وعاطفة تذهب بين يوم وليلة ضحية الاعتداء الأثيم، من كان يظن أن بلد الحرية والإخاء يصبح بلد الاستعباد والظلم، إذا كان هذا هو شعورى وأنا مصرى لا تربطنى بفرنسا وباريس غير رابطة الدراسة والاستقرار فيها ردا من الزمن فكم يكون اليما شعور الفرنسيين بالنسبة لوطنهم .. كم أحببت الألمان عندما أقمت ببلادهم ولكنهم لم يكونوا ألمان اليوم، لم يكن هتلر قد ظهر بعد ..

ولم تكن تلك النبوة الهيستيرية قد اعترت هذا الشعب المجيد بعد،
كان الألمان قوما ظرفاء طبيى القلب فياضى العواطف ولكننى لم
أكد أترك بلادهم حتى أمسك هتلر بالحكم ، وحتى انتابت هذا
الشعب الوديع لوثة من الجنون...»

كان محرم كمال يتحدث لأبكار هنا فى خطابه النادر /الوثيقة
عن الحرب العالمية الثانية.

أيضاً كانت صلتها كبيرة بالعديد من أساتذة التاريخ والتراث
والمصريات، ليست صلة اجتماعية أو علاقات عامة فحسب ولكن
بمطالعتى لخطاباتها وجدت أنها عبارة عن محاورات فى العلم أكثر
منها خطابات مودة أو اجتماعيات، فكل الخطابات تدور حول
محاضرات أو كتب طلبتها من الأساتذة الذين كانوا يكتبون لها فى
شتى التخصصات وكلهم كانوا يثنون على دأبها وسعة اهتماماتها
وبخاصة فى المصريات «التي احتشدت لها كخط سير فى كتاباتها
التي ركزت على اليهود ودورهم فى مصر الفرعونية ..

«وبقى القول بأن عقلية أبكار كما اتضح من تكوينها ودراساتها،
كانت علمية فى الأصل وقد تأصل ذلك علاقاتها القوية بشقيقتها
ضياء التى درست العلوم الفيزيائية بتوسع وعمق وكانت القارئة
الأولى - ويبدو أنها الوحيدة لأبكار كانت كثيرا ما تجعلها تغير مما
تكتب ولا تنص أبكار عن كتاباتها إلا بعد أن تقتنع ضياء .. وكانت
تكتب بمنهجة سابقة - بالفعل - لعصرها وما كان متاحا فيه من

أفكار وساعدها فى ذلك اطلاعها المتعمق على الثقافة الغربية التى لم تنقلها كما فعل كثيرون اشتهروا تحت راية التنوير، لكنها جعلت تلك الثقافة الغربية ومنهجيتها قضباناً تحمى انتقال ثقافتها العربية التى بدأت من مكتبة والدها التراثية .. ولعل تلك المنهجية العلمية العميقة هى ما جعلت الاهتمام ينصرف عنها، وربما كان خطأها الوحيد أنها لم تكن «شعاراتية»، ولم تقترب من درجة الشهادة أو ادعائها، ورغم ما قيل عن مصادرة كتابها إلا إنها لم تدخل فى قائمة ضحايا الاضطهاد الفكرى والذين اتهموا بالتكفير، ولم تستطع أن تستغل ذلك وتنتشر وتباع كتبها فى السوق السوداء..

شئ ما غامض لم أستطع التوصل إليه حتى الآن جعل تلك السيدة الجميلة بأفكارها وقوامها الممشوق عن أيامنا وأفكارنا وتاريخنا وهى تملك بجدارة ودون إدعاء أن تكون أحد الأعمدة الأساسية للتنوير والتفكير الحقيقى فى مصر.

ورغم ما قصته على شقيقتها من اتهام البعض لها بأنها كافرة، إلا أن ذلك لم ينتشر وإنما كان نقاشاً روتينياً بين بعض الضيوف الأزهريين الذين كانوا يحاورونها فى بيتها وتستقبلهم بترحاب والواضح - من كتابها - جداً أنه أقرب إلى الإيمان وأبعد عن الجهل ومتجاوز لحدود كثيرة يفضل الناس ألا يتجاوزونها لأنها أبعد من طاقاتهم، ولعل علاقتها الوثيقة جداً بالشيخ محمد أبو العيون الذى كان وكيل الأزهر فى فترة ما، وكان عالماً شهيراً لعل تلك

العلاقة تكشف عن مدى نصابها الدينية، وذلك ثابتا بكتاباتا قبل تلك الخطابات الذي عثرت عليها لدى شقيقته وكان الشيخ أبو العيون دائما يرسلها إليها، وكان يكتب إليها دائما ... «بنيتي العزيزة» لها في أحد الخطابات يقول لها: (فوالله لا أنساك أبدا .. وأنت سلواي وأحبك حب بناتي تماما وأود أن أراك قريبا وأدعوا لك بالرفاهية والراحة واستقرار النفس وأهنئك بشهر الصوم .. أعاده الله عليك وعلى الشقيقة وعلى الوالدة بالهناء .. محمود أبو العيون ١٩٤٧ / ٨ / ٣).

وفي خطاب آخر كان المظروف صغيرا مكتوب عليه «الحكومة المصرية» «مكتب السكرتير العام للجامع الأزهر» .. الإسكندرية تفتيش السيوف .. حضرة الادبية الفاضلة المحترمة روح الحياة أ بكر السقاف .. وقال في خطاب آخر (بنيتي العزيزة .. لك في عنقي عهد لا أنساه أبدا فمنذ رأيتك يا بنيتي رأيت فيك المثل الأعلى للفتاة الواثقة بنفسها وبرسالتها في الحياة وبوظيفتها في الجيل، ورأيت فيك معنى الجمال الروحي الذي ينشده الفلاسفة وعلماء النفس وشعرت بعاطفتك الجارفة التي ربطتنا سويا وجعلتنا روحا واحدة ونفسا واحدة وشعورا واحدا . قبل أن أراك يا بنيتي كنت أتخيلك في صورة غامضة لأن كتابك إلى وردك على مقالى «يا

ضيعة الاخلاق في عهد الحرية» منذ أربع عشرة سنة، كان ردا قاسيا وكان حادا في الدفاع عن المرأة المغامرة وكنت أتخيلك في

صورة المتمردة على رسالة المرأة في الحياة والعاملة على هدم الفوارق الفطرية بين الجنسين، ولكنى حين رأيتك وحادثتك وسمعت منك .. ولا تزال ألفاظك الحلوة ترن في أذنى - إن المرأة امرأة والرجل رجل وأنت تتشدين الحياة الكاملة للجنسين فى حدودها التى فطرتهما عليها الفطرة الإلهية لهذه المعانى. أحببتك وأكبرتك فى نفسى واتخذت منك ابنة لى هى بالبنة الحقيقة أشبه .. ولعل تلك الكلمات التى كتبها الشيخ الأزهرى المعروف لا تحتاج إلى تفسير بل فقط إلى حساب التواريخ حيث كان هذا الخطاب مرسلا فى ١٩ / ١٠ / ١٩٤٨ .. ويتحدث فيه عن ردها عليه قبل ١٤ عاما وهو الرد الذى توقف عنده الشيخ بالتطيل واعتبره قاسيا أى أن أبكار كانت وقتها فى الحادية والعشرين - فقط - من عمرها ..

وفى خطاب آخر يقدم الشيخ أبو العيون معنى دقيقا.. لأبكار حين يقول لها .. «بنيتى العزيزة .. لقد تأثرت بتهنئتك بالعيد الأكبر وكل كلمة تكتبينها إلى يا بنيتى أحس فيها بروح ذات حساسية ونواقة وشعور غريب ليست فى بنات جنسك اللائى صادفتهن فى حياتى - وهن كثيرات مثقفات - أشعر حين أقرأ لك كتاباتك أن نفسك فى كبرياء وسمو وفى الوقت ذاته أشعر بأنها ضعيفة وحزينة وبائسة وأنها فى شكاة دائمة وألم مكبوت، .. ، مسكينة أنت يا روح الحياة أنت يا بنيتى غريبة عنا، غربة عن جيلك الحاضر، إن قلبك

نابض يحيا في الحياة المثالية ولكنك مرتدية رداء المرأة العادية فلا يعرفك كثير ممن يعرفونك أو يتسامرون معك.

كان ذلك وصفا لأبكار عام ١٩٤٦ ولعله أجمل ما قيل عنها فالغربة قدر العابرين الذين يقولون كلمتهم ويمشون سريعا حتى وإن بقوا في الحياة لفترة طويلة، كنت طوال الوقت وأنا أستمع لشقيقتها المهووسة بها أحاول أن أبني بعضا من الغرف والوسائد والمكاتب التي كانت تجلس إليها أبكار لأتخيل كيف قضت كل تلك السنوات الطويلة بدون ألم أو لهاث وراء أمل نشر وانتشار أفكارها، واستغرب كيف تحملت ذلك وأمامى اليوم من يحمل أوراقا وأفكارا هي كفقاقيع الصابون لكنه ينثرها علينا صباح مساء في الراديو والتلفزيون والبوتاجاز ويشعر بالظلم الفادح إذا لم يطبع له كتاب ويصبح حديث المدينة إذا هاجم أحد أفكاره وقد ينال مرتبة الشهادة وهو في الأصل بعيدا عن الفكر بعدى عن قيادة مركبات الفضاء ..

أما هذا السلام الداخلى الذى كانت تتمتع به هذه الفارسة الأميرة فهو أعجب ما سأظل أبحث عنه وإن كنت قد قاومت دموعا فى داخلى وضياء شقيقتها تصف ألها النفسى بعد هذا الموت الذى حكموا به على كتابها الذى كانت تتصوره سيغير وجه الوطن ولكنها كانت تحمل صدقها داخل صدرها، ولم ألحظ فى كل اللوحات الكثيرة جدا التى رسمتها لها شقيقتها أو حتى الصور الأكثر .. لحظة انكسار واحدة فى عينها .. لاحظت فقط أن قسوة الناس هى

التي تجعل الزمن يتوحش ويقتلنا فيما بعد .. ولا تتوحش الأيام إلا عندما يتشابه الناس .. ويصبحون قطيعا .. «زحام ولا أحد» كما كان يراهم المتنبي ويبدو أن الزمن - والناس - لا يخافون إلا ممن يفكر وهم لا يفكرون، ويصمت وهم يصيرون، ويرضى وهم ساخطون، ويعيش فى سلام مع نفسه وهم فى حرب مع الجميع يعيشون.

لقد واجهت أبحار قدرا يليق بها .. يليق بوتر مشدود مصنوع من الـ «ستيل» لا ينكسر ولا يلين، ولكننا نحن الذين لم نلق القدر اللائق بنا معها .. إنها لا تحتاجنا وحتى عندما كانت تعيش معنا فهي مستغنية بنفسها .. فيمن نستغنى نحن .. جاءت غريبة من الحجاز وعاشت غريبة وسط أصدقائها . وقدمت شهادة بتلك الكتابات الرائعة لميلاد وطن جديد هو «الغربة»، فهو الأجمل عندما تكون كل المساحات وأحاديث الوطن متشابهه . لقد عاشت فى دفاء أفكارها ولم يقتلها برد الغربة .. سلام عليها .. وفى كل زمان .. طوبى للغرباء!.

تطلب جميع أعمال الكاتب

من

أطلس للتشريع والإنتاج الإعلامي



٢٥ شارع وادى النيل - المهندسين - القاهرة

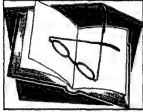
٥ شارع محمد شفيق من شارع وادى النيل

المهندسين - القاهرة

تليفون: ٢٠٢٧٩٦٥ - ٢٠٢٩٥٣٩ - ٢٠٤٢٤٦٩ فاكس: ٢٠٢٨٣٢٨

E-mail: innov@innovations-co.com

الفهرس



الفهرس

إهداء	٣
مقدمة الطبعة الثانية	٥
الفصل الأول : حسن نصر الله .. السيد رئيس تحرير الجنوب	٩
الفصل الثاني : سهى بشارة .. لتتال ما تريد ليس سوى العناد	٢٧
الفصل الثالث : مروان البرغوثى .. عقل مفاوض .. قلب منتفض	٤٧
الفصل الرابع : ايزافيتش	٦٥
الفصل الخامس : نفرتيتى جميلة الجميلات	٨٣
الفصل السادس : سعاد حسنى انتحار الربيع فى لندن	٩٧
الفصل السابع : مرسيل خليفة «جرح بينده ع الحرية»	١١٣
الفصل الثامن : قصة حياة حرم السيد «أحمد عبد الجواد»	١٣١
الفصل التاسع : إبراهيم الحجار .. شهيد غنائى لصلاح سالم	١٤٧
الفصل العاشر : من يعرف روح الحياة أ بكر السقاف	١٦٣

حقوق الطبع محفوظة لـ

دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء من هذا الكتاب
إلا بعد الرجوع إلى دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي



حب من طرف ثالث

عندما تتأجج مشاعر كاتب، وتتحرك أحاسيسه تجاه إحدى القضايا التي تهتم الناس، فإن الكلمات تنساب عبر قلمه وتتشكل عباراته لكي تتهدى بين صفحات كتاب أو مذكرات فتلقفها بلمفة واشتياق لكي تنمك من معينها ما يشبع رغبتنا الملحة في معرفة الحقائق والأسرار.. هذا هو ما سوف يشعر به القارئ من خلال صفحات هذا الكتاب الممتع الذي أبدعه واحد من كبار سدنه الفن والأدب، أراد من وحي ضميره وأخلاقه أن يحق حقوق بعض الأشخاص ممن يقعون في دائرة الضوء، وتخضع حياتهم دائماً للتفتيش والتنقيب، حيث يتلمس الناس أسرار حياتهم وسلوكياتهم الخاصة والعامة، ويجعلون منها دائماً محاور للتساؤلات والتناقشات.

وها هو يزيح الستار عن كل الجوانب في حياة هؤلاء وتوجهاتهم لعله يروى ظمأ المتعطشين إلى المعرفة الحقيقية بعيداً عن الفواجس والتقولات، وسوف يجد القارئ نفسه أمام عمك شائق لا ييسأم منه ولا يمل، من سرد جميل وعبارات جذلة سلسلة وأسلوب أدبي رش

Bibliothèque Alexandrina



0411929

